بدايات الاستيطان والمواجهة الفلسطينية الصهيونية (في الثلث الأخير من القرن التاسع عشر)

إبراهيم عبدالكريم*

* باحث في شئون الصراع العربي ـ الصهيوني .
عضو الاتحاد العام للكتاب والصحفين الفلسطينيين .

الملخص

يتناول هذا البحث المسائل الإجرائية والتفاعلات المتعلقة بمرحلة إنشاء الاستيطان الصهيوني في فلسطين، والاستجابات المتبادلة في حدود التعارض المبكر بين الموقفين الفلسطيني والصهيوني.

فبعد دراسة الاستيطان اليهودي «التمهيدي» حتى العام ١٨٨١، يتناول البحث دراسة مرحلة «تأسيس الاستيطان» رسمياً اعتباراً من العام ١٨٨٢ حتى نهاية القرن التاسع عشر، وضمناً مسألة تسرّب الأراضي العربية إلى أيدي الصهيونيين . . ولإعطاء فكرة عما جرى، يستعرض البحث الأوضاع الفلسطينية القائمة آنذاك، ويرصد بداية التحوّل في طبيعة العلاقة (من التعايش إلى العداء)، عبر عدة إشارات ظهرت في صفوف الفلسطينيين. ثم يتابع البحث هذا الرصد بالتعرض إلى التعبيرات الجديدة لاستياء الفلسطينيين (المقاومة المادية ـ العنف ـ والاحتجاج بالعرائض والقنوات السياسية).

ويتحرى البحث عوامل التحريض في الموقف الفلسطيني المناهض للنشاط الصهيوني في فلسطين. فيُعنى هنا بالتركيز على قضية استلاب الأرض والبعد الاقتصادي للهجرة اليهودية، ثم بدراسة أفكار المستوطنين وتصرفاتهم وأخيراً أثر الاتجاهات القومية والمثقفين.

وبعد ذلك يتناول البحث المسألة الخاصة بردود المستوطنين، وبشكل خاص الاعتبارات الكامنة وراء الاستعانة بالعرب في العمل داخل المستوطنات، وكيفية تأمين الحماية لها واعتماد الأساليب المختلفة في التعامل مع الفلاحين العرب لامتصاص نقمتهم على تجريدهم من الأراضي وعلى التهديد الاقتصادي الصهيوني لمعيشتهم.

ويحاول البحث إعطاء صورة عن نمط التفكير الصهيوني في الموضوع المدروس، فينتقي شهادات لمفكرين صهاينة معروفين (أمثال: كاليشر ـ آحادهاعام ـ سيملانسكي ـ هرتزل ـ ابشتاين . . .) ثم يخلص البحث إلى إيراد بعض النتائج والدروس التي تبلورت جراء ذلك.

أصبح بدهيا إدراج المشروع الصهيوني في فلسطين، ضمن سياق حركة التوسع الاستعمارية الغربية، خلال تحول الرأسمالية الصناعية إلى عصر الامبريالية منذ الثلث الأخير للقرن التاسع عشر. ومعروف أنه في صلب تلك الحركة، جرى التركيز على استخدام «الأداة اليهودية» لتؤدي مهمة وظيفية، تبعاً لاعتبارات متعددة :

— أولها ، تلبية المصالح المشتركة للدول الاستعمارية، كبديل للتنافس بينها ، والاستعاضة عن تورطها المباشر في إرسال وحداتها إلى المنطقة العربية . .
— وثانيها، توفر إمكانية اقتلاع اليهود من أوطانهم ودفعهم باتجاه فلسطين، دون أن تترتب على ذلك أية مشكلة سكانية / سياسية تطال الدول المعنية . .
— وثالثها ، إتاحة الفرصة لحل ما سمّي «المشكلة اليهودية» ، باستغلال الذرائع الغيبية المتداولة في موضوع العلاقة بين يهود العالم وفلسطين .

بطبيعة الحال ، رُسِمَ للمشروع الصهيوني، بما هو مشروع امبريالي ، أن يحقق ـ عبر شقّه اليهودي ـ عائدية خاصة لليهود ، تستخدم بدورها وفي المحصلة النهائية لمصلحة التوّجه الامبريالي الشامل إزاء المنطقة العربية، وتمثّل الغطاء الذي يخفي تحته اتساقا، يكاد يكون كاملا، بين العام والخاص. . هي خلفية يتعين اعتمادها لدى النظر إلى مرحلة إنشاء الاستيطان اليهودي / الصهيوني في فلسطين منذ سبعينيات القرن الماضي، ثم رعايته بمختلف صنوف الدعم والمساعدة في العقود اللاحقة .

— فماذا عن المسائل الاجرائية والتفاعلات الخاصة بهذا الإنشاء !؟!
— وعلى أي نحو كانت «الاستجابات المتبادلة» في حدود التعارض المبكر بين الموقفين الفلسطيني والصهيوني !؟!.
— وما هي أبرز الدروس والاستخلاصات التي تبلورت جراء ذلك !؟!

ثلاثة محاور رئيسة لهذه الدراسة التي تطمح إلى أن تكون رافدا للأبحاث المعنية بتلك الفترة ، عبر تقصي وتحليل المعطيات المنتمية إليها . .

الاستيطان التمهيدي

ضمن الارتباطات الملحوظة بين الظروف العامة وبين الاستيطان اليهودي / الصهيوني في فلسطين، نلمس ظهور هذا الاستيطان إبّان استقرار نظام ملكية الأراضي العثماني ، خلال ثلاثين السنة الأخيرة من القرن التاسع عشر، على أساس القانون الصادر عن الاستانة عام ١٨٦٩م المسمى «نظام استملاك التبعة الأجنبية للأملاك» . . وقبل هذا القانون لم يكن يحق للأجنبي استملاك الأراضي في الامبراطورية العثمانية لأي سبب كان . وأكثر ما كان يتمتع به الأجانب هو الامتيازات

التجارية ثم الحماية . . غير أنه مع الضغوطات المستمرة من قبل الدول الأوروبية ذات المطامع والنفوذ في الامبراطورية العثمانية، توقف هذا المنع بصدور القانون المشار إليه ، الذي كان المستفيدون منه هم أتباع كل الدول الأجنبية الموافقة على نصوصه (موسى ، ١٩٧٩ : ٨٨).وغني عن البيان أن ذلك أفسح المجال لزيادة وتيرة التحرك الصهيوني، لاحقا ، سعيا وراء الحصول على الأراضي في فلسطين ، بصورة مباشرة أو عن طريق القناصل «والمواطنين» الأجانب على حد سواء . .

إن نظرة على الواقع الديمغرافي في تلك المرحلة، تبين وجود علاقة معينة بين الواقع الذي نشأ إثر صدور القانون المذكور وبين ازدياد أعداد المهاجرين اليهود إلى فلسطين . حيث بدأ التواجد اليهودي في البلاد يأخذ منحى جديداً طيلة العقود الثلاثة الأخيرة من القرن الماضي، مفترقا عما كان عليه الوضع قبل أواسط القرن. . . فقدوم أعداد من اليهود إلى فلسطين بسبب «محاكم التفتيش» في اسبانيا (١٩٤٢م) ، وهجرة أول جماعة اشكنازية تابعة للحركة الحسيدية الثالثة عام ١٧٧٧ (بولاك ، ١٩٧١ : ١٤٠) ، وتأسيس الطائفة الاشكنازية في القدس لأول مرة في العام ١٨١٢ (أبو عرفة ، ١٩٨١ : ٤٤) ، كل ذلك لم يفلح في زيادة أعداد اليهود في فلسطين بشكل ملموس، مع استقطاب الولايات المتحدة للهجرات اليهودية عام ١٨٤٨ . بينما تضاعف عدد القادمين اليهود إلى البلاد، وبلغ عام ١٨٨٠ نحو ٢٥ ألف نسمة مقابل ١٠٦٠٠ نسمة عام ١٨٥٦ (مؤسسة الأرض للدراسات الفلسطينية ، ١٩٧٨ : ٣٢).وهذه الزيادة ، يقدر أحد الباحثين، لا يمكن نسبتها إلى تحسن الأوضاع الاقتصادية أو غير ذلك من العوامل التي أفادت البلاد ككل، وإنما تُعزى إلى تضافر عاملين، **أولهما** ازدياد النفوذ الغربي في السلطنة العثمانية، **وثانيهما** يتمثل بالحماية التي وفرها القناصل الأوروبيون في الأستانة والقدس لليهود (ستيفنز ، ١٩٧٢ : ٤٥) .

لقد ترافق هذا الازدياد في عدد القادمين اليهود إلى فلسطين، مع تكثيف النشاطات الرامية إلى الحصول على الأراضي، تمهيدا لبدء الاستيطان الصهيوني الرسمي . . وكأمثلة، جرى في العام ١٨٥٧ البدء بإنشاء أول حي يهودي خارج أسوار مدينة القدس هو «مشكانوت شئنانيم» الذي عرف بعد ذلك باسم «يمين موشي» نسبة إلى موشي منتفيوري الثري البريطاني الذي حصل على «فرمان عثماني» عام ١٨٥٥ يسمح له باستغلال قطعة أرض لإقامة مشفى عليها. فأنشأ على هذه القطعة مساكن شعبية لليهود عام ١٨٥٩ (صالح، ١٩٨٥ : ١٤٢) ، وبنى عشرين مسكنا لهم لم تشغل إلا في العام ١٨٦٢ . وبذلك يعتبر هذا الحي أول حي سكني خاص باليهود في فلسطين ، ونموذجاً تكرر لاحقا بإنشاء أحياء أخرى مثل «معسكر إسرائيل» وحي «ناحلات شيفعا» عام ١٨٦٩ (وهب الله ، ١٩٨٣ : ١٥) وغيرهما من الأحياء اليهودية داخل مدينة القدس .

وكان أن سجل العام ١٨٦٠ تأسيس جمعية «الاتحاد الإسرائيلي العالمي ـ الأليانس» في فرنسا ، على يد بعض نشطاء اليهود الفرنسيين ، وأبرزهم : أدولف كريميو النائب في مجلس النواب ووزير العدل الفرنسي لاحقاً ، وشارل نيتر أحد عملاء المخابرات الفرنسية آنذاك (مؤسسة الأرض للدراسات الفلسطينية، ١٩٧٨ : ٤٩) .

تحت شعار «العمل في كل مكان لتحرير اليهود وتقدمهم المعنوي» كان تأسيس «الأليانس» ، كما يذكر أحد الباحثين، «تعبيرا ثقافيا للسياسة الامبريالية التوسعية لنابليون الثالث» (القشطيني ، ١٩٨٦ : ١٧٦) . ومنذ تأسيسها أخذت هذه الجمعية تعمل على تشجيع الهجرة اليهودية إلى فلسطين، وتمد يد العون إلى المهاجرين الجدد. فافتتحت ـ تساوقا مع ذلك ـ مدرسة مهنية في العام ١٨٦٥ لتدريب اليهود على المهن المختلفة (مؤسسة الأرض للدراسات الفلسطينية، ١٩٧٨ : ٤٩) .

في العام ١٨٦٨ أوفدت «الأليانس» إلى فلسطين مبعوثها شارل نيتر لدراسة أوضاع اليهود هناك، وبعد التقرير الذي قدمه نيتر إلى الجمعية، تقرر بناء مدرسة زراعية في البلاد لتعليم أبناء اليهود أصول الزراعة الحديثة. وبالفعل جرى تشييد «مدرسة نيتر» التي سميت «مكفيه يسرائيل ـ رجاء إسرائيل» !! وذلك في العام ١٨٧٠، بالتعاون مع المالي اليهودي الفرنسي أدموند دي روتشيلد بعد أن تمكنت «الأليانس» ـ أيام ولاية رشيد باشا ـ من الحصول على «فرمان» من السلطان عبد العزيز بتأجيرها ٢٦٠٠ دونم كان يفلحها أبناء قرية يازور العربية (٤ كم جنوب شرقي يافا)، «مقابل ١٨٠٠ فرنك ذهبي» (مؤسسة الأرض للدراسات الفلسطينية : ١٩٧٨ : ٤٩) عن كل سنة من سنوات عقد ايجار مدته ٩٩ عاما . ولا تورد المصادر المتوفرة ـ على كثرتها ـ شيئاً عن ردود أبناء القرية المذكورة على هذا الإجراء . خلال الأعوام الأربعة التي أعقبت تأسيس «مكفيه يسرائيل» كانت هذه المدرسة / المستعمرة تنمو بسرعة. فشغلت عام ١٨٧٤ حوالي ٣١٢٠ دونماً (بزيادة ٥٢٠ عما ورد في الامتياز). ونظراً للمهمات التي قامت بها، في مجال تزويد المستوطنين اليهود بالخبرة الزراعية وتقديم التسهيلات لهم، يعتبر بعض الباحثين ان «مكفيه يسرائيل» هي «أول مستعمرة زراعية يهودية في فلسطين» (عوض ، ١٩٨٣ : ٧٣) . وبتزامن مثير للانتباه مع نشاطات «الأليانس» سعى «رواد يهود» من ألمانيا (عام ١٨٦٠) للهجرة إلى فلسطين، منهم هوفمان من ورتنبرغ، الذي أسس جمعية عرفت باسم «تامبل ـ جمعية محبي القدس» . . ومع حلول العام ١٨٦٩ بدأت قوافل ورتنبرغ تطأ أرض فلسطين حيث استقرت في يافا. وقام هوفمان بابتياع أراضٍ هناك، وفي القدس أيضا، وأسكن فيها المهاجرين الألمان الذين أسسوا قرية سارونة (بالقرب من يافا) (حلاق ، ١٩٨٠ : ٨٥) .

في هذه الاثناء، نشطت الدعوات اليهودية لتعلّم الزراعة وإقامة الاستيطان الزراعي، وتعاظمت الأصوات في أوساط يهود فلسطين التي تعارض نظام «الحالوكاه ـ الصدقات» الذي كان معظمهم يعيشون عليه. فكان يوئيل موشي سلومون من أبرز الذين شنوا هجوما عنيفا على هذا النظام. ونشط من جانبه في شراء الأراضي بالتعاون مع عدد من زملائه أمثال: يوسف ريفيلين ويهوشع لين ودافيد غوتمان، وغيرهم. وقد استطاع سلومون مع اثنين من هؤلاء شراء ٣٣٧٥ دونما عام ١٨٧٨، من أراضي قرية ملبّس العربية (١٠ كم شرق يافا) ، كانت ملكا لأحد التجار العرب. وتمّ إبرام عقد شرائها بحضور قنصل النمسا في القدس (جريس، ١٩٧٧ : ٦٩) . وتقول معلومات أحد المهتمين اليهود بتأريخ الاستيطان ان مساحة الأرض المشتراة كانت ٢٥ ألف دونم (سيملانسكي ، ١٩٣٠ : ٣٥). المهم أن هذه الأرض كانت جزءاً من الرقعة التي أقيمت عليها في العام المذكور مستوطنة أطلق عليها

اسم «بتاح تكفا ـ باب الرجاء» !! التي أصبحت فيما بعد ـ بالرغم من المشكلات والمصاعب الكثيرة التي واجهتها ـ «أوسع وأنجح المستعمرات الصهيونية في فلسطين» (عوض ، ١٩٨٣ : ٧٣) .

نقف عند هذه النقطة لنشير إلى أن تأسيس «بتاح تكفا» يعد بمثابة حلقة الوصل بين ما نسميه «الاستيطان اليهودي التمهيدي» الذي أنشئت خلاله مدرسة «مكفيه يسرائيل» ، وبين تأسيس الاستيطان الصهيوني في فلسطين . . ونصل إلى ثمانينيات القرن الماضي ، فتدخل النشاطات الاستيطانية مرحلة جديدة ، تميزت بكثافة بناء المستوطنات ، وازدياد أعداد المهاجرين الصهيونيين إلى البلاد .

استيطان التأسيس

يمكن تتبع بداية هذه المرحلة ، اعتباراً من العام ١٨٨١ . . فبعد اغتيال قيصر روسيا اسكندر الثاني في آذار (مارس) من ذلك العام ، ونتيجة لاشتراك عناصر يهودية في عملية الاغتيال ، تعرض اليهود الروس إلى حملة اضطهاد ومذابح تبعتها هجرات جماعية ، اتجهت فيها الغالبية العظمى من المهاجرين ـ من روسيا وأوروبا الشرقية ـ إلى غرب أوروبا والولايات المتحدة في حين هاجرت أعداد قليلة منهم إلى فلسطين .

كان من بين هؤلاء عدد من الشباب ، معظمهم من الطلاب الجامعيين الذين انتظموا في حركة «البيلو» التي أخذت تنشط اعتباراً من مطلع الثمانينيات ، والتي تزامن تأسيسها مع ظهور «حوفيفي تسيون ـ أحباء صهيون» في روسيا عام ١٨٨٢ . وقد بلغ عدد المهاجرين اليهود إلى فلسطين خلال هذا العام حوالي ٣ آلاف يهودي (عوض ، ١٩٨٣ : ٤٥) . منذ ذلك التاريخ ، تم الشروع في تأسيس المستعمرات الصهيونية التي بلغ عددها مع نهاية فترة الهجرة الأولى نحو ٢٤ مستعمرة (انظر الجدول والخريطة) .

« المستعمرات الصهيونية في فترة الهجرة الأولى ١٨٨٢ ـ ١٩٠٣ »
[جدول مصمَّم بالاستفادة من الخارطة المنشورة في الصفحة التالية]

عام التأسيس	مستعمرات الجليل	مستعمرات وسط فلسطين
١٨٨٢	ـ روش بينا ـ زخرون يعقوب	ـ ريشيون لتسيون
١٨٨٣	ـ يسود همعليه	ـ نس تسيونا (بحلات رؤوفين) ـ مزكيرت باتيه (عكرون)
١٨٨٤	ـ	ـ غديره
١٨٨٧	ـ	ـ يثير طوفيا
١٨٨٩	ـ بات شلومو ـ مثير شافيه	ـ
١٨٩٠	ـ مشمار هايردن ـ عين زيتيم ـ الخضيرة	ـ رحيوت

١٨٩٤	-	- موتسا / تحتيت /
١٨٩٦	- ميتولا / المطلة - غان شموئيل	-
١٨٩٩	- محانيم	-
١٩٠٠	- يفنئيل	-
١٩٠١	- كفار تابور	-
١٩٠٢	- الشجرة - منحاميا - جفعات عيده	- كفار سابا

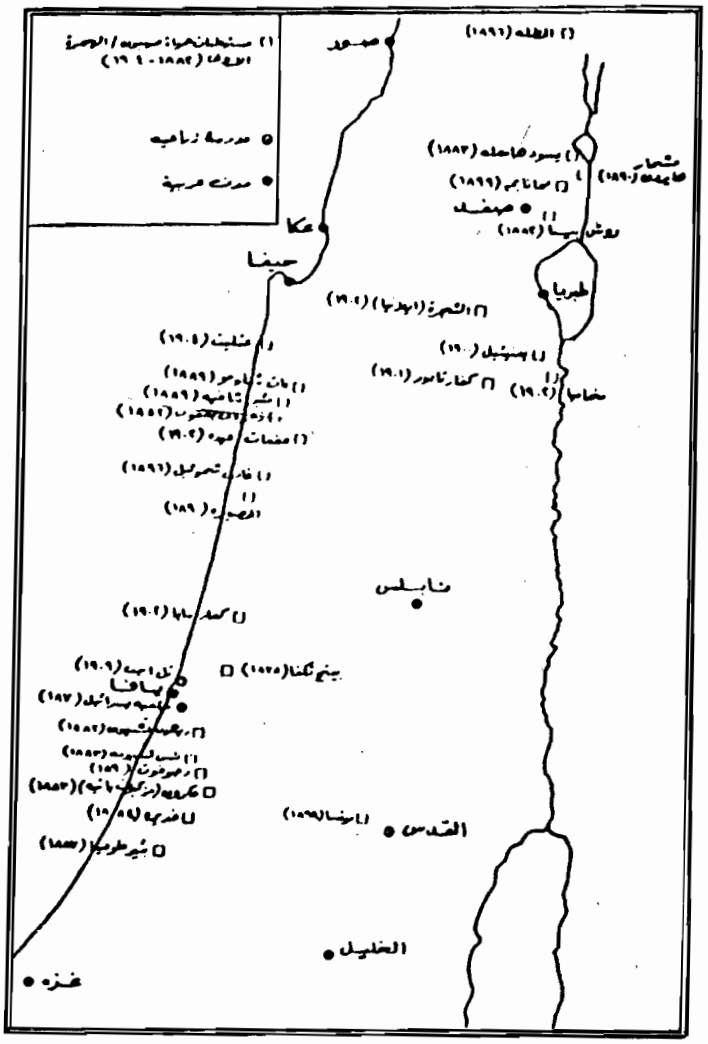

المصدر : صبري جريس، «تاريخ الصهيونية / جـ١ ، ص ١٣٧ (بتصرف)

خلال هذه الفترة، كان البارون أدموند دي روتشيلد يقدم التمويل والرعاية لتلك المستعمرات، التي انتقلت مع نهاية القرن إلى «جمعية الاستيطان اليهودي ICA» بإدارة البارون دي هيرش. فواصلت هذه الجمعية عمليات شراء الأراضي وبناء المستوطنات في السنوات التالية.

حول عدد المستوطنين اليهود / الصهيونيين في مرحلتي الاستيطان التمهيدي واستيطان التأسيس، تتباين المعلومات في هذا الشأن. وتقدر مصادر «الوكالة اليهودية لفلسطين» ان هذا العدد ارتفع من ٢٤ ألف نسمة عام ١٨٧٢ إلى ٥٠ ألف نسمة عام ١٩٠٠، يقيم منهم في المدن ٤٤٧٩٠ يهودياً، ويستوطن الآخرون في المستعمرات الريفية (Department of Statistics, 1944 - 1945: 234) أما بالنسبة للمساحة الإجمالية للمستعمرات التي تم إنشاؤها حتى ذلك التاريخ فقد بلغ ٢٢٠٧٠٠ دونم (التميمي، ١٩٨٣: ١٢٩).

لدى استعراض مجمل الظروف الذاتية والموضوعية التي كانت تعيشها تلك المستوطنات، يمكن الاستنتاج بسهولة أن المستوطنين وزعماءهم بذلوا جهوداً غير عادية لتجاوز المشكلات والمصاعب التي واجهها الاستيطان. فإضافة إلى ضآلة الكفاءة والخبرة الزراعية، ابتلى معظم المستوطنين بالفقر والفاقة، وانتشرت في بعض المستوطنات أمراض خطيرة بينها حمّى الملاريا، مما قاد إلى حدوث تردٍّ في الأداء البشري الاستيطاني وانخفاض في الإنتاجية العامة.

وإذا كان استمرار غالبية تلك المستعمرات يُعزى إلى ما قدّمه البارون دي روتشيلد وغيره من دعمٍ مالي وتشغيلٍ للمستوطنين، فإن هذا الدعم بدوره كان يخلق مشكلة جديدة تتمثل في «اعتماد المستوطنين المطلق، في إدارة شؤونهم، على مساعدات المموّلين اليهود ـ المالية والفنية ـ مما أدى إلى إضعاف حوافز العمل الذاتي لديهم» (محمود، ١٩٨٤: ٢٥٥)، وبالتالي بقاء حياتهم ومصيرهم مرهونيْن بمشيئة أولئك المموّلين. يضاف إلى هذا أن البارون دي روتشيلد اتبّع سياسة حازمة في إدارة المستوطنات تسببت من ناحيتها بظهور منازعات ومشاحنات مع المستوطنين.

يعيد أحد الباحثين هذا الأمر إلى «كراهية الصهاينة أسلوب روتشيلد الخيري، وكراهيته هو أسلوبهم السياسي، مما أدى تشككا متبادلا بين الطرفين» (القشطيني، ١٩٨٦: ١٧٧). بيد أننا نرى أن سبب هذه الكراهية المتبادلة غير مقنع، فالرجل كان يخفي دوافع سياسية معيّنة بثوب «العمل الخيري» وكان يضغط باتجاه عدم الكشف بشكل سافر عنها، وبالتالي يصح القول إن التشكك الذي برز ليس سوى نتيجة لإصرار روتشيلد على استغلال قوة عمل المستوطنين.

على أية حال، ليس ثمة خلاف على أن البارون دي روتشيلد كان قوة الإسناد الأولى للمستعمرات الصهيونية في مرحلة الهجرة الأولى. وحين يتم وضع هذا المعطى على قاعدة العلاقة والارتباط بين مموّلي الاستيطان وبين الدوائر الاستعمارية الغربية، نخلص عندئذ إلى أن الأخذ بيد المستوطنين للنجاح في تجربتهم كان مطلبا استعماريا، بنفس القدر الذي يبدو فيه مطلبا يهوديا / صهيونيا.

بعد هذا الإجمال المقتضب لوقائع ووضع الاستيطان، بشقيه التمهيدي والتأسيسي ربما تثار تساؤلات حول الظروف والملابسات التي أفضت إلى حيازة المستوطنين اليهود مساحات كبيرة نسبيا من الأراضي العائدة للعرب. . فماذا عن ذلك !؟!.

في مسألة تسرب الأراضي

إلى جانب شراء آلاف الدونمات من قناصل ورعايا الدول الغربية في فلسطين الذين امتلكوا الأراضي بموجب القانون العثماني لعام ١٨٦٩، تمكنت الشخصيات اليهودية والمؤسسات الصهيونية من ابتياع مساحات أخرى من العرب. وفي الكثرة الساحقة من هذه الحالات كان بائعو الأراضي يتألفون من الفئات التالية (الكيالي، ١٩٧٩ : ٥٨) :

١ ـ مجموعة الملاكين الغائبين، ومعظمهم من العائلات العربية المقيمة خارج فلسطين (أمثال : آل سرسق وبسترس وتويني ومدور . . الخ) التي كانت قد حصلت على مساحات كبيرة من أكثر الأراضي الفلسطينية خصوبة وبخاصة في مرج ابن عامر .
٢ ـ بعض الاقطاعيين المحليين، من عائلات معينة في فلسطين (كسّار ـ روك ـ خوري ـ حنا. . الخ)، بالإضافة إلى حالتين باع الأراضي فيهما بعض «أفندية» صفد .
٣ ـ عدد محدود من الفلاحين المعوزين، من ثلاث قرى فقط. وكانت مساحتها ضئيلة جداً .

. . . ويظل ثابتا أنه بالرغم من وجود حالات أخفق فيها الصهيونيون في التغلب على عقبات الشراء، فإن تسرّب الأراضي كان متيسراً لأسباب متعددة، أهمها :

أولا : إن المنظمات الصهيونية والشخصيات اليهودية المهمة، كانت تتبع أسلوب رشوة بعض الولاة العثمانيين لتسهيل انتقال الأراضي إلى المستوطنين، التفافا على بعض اللوائح التي أصدرتها الحكومة العثمانية في هذا المجال ..

ثانيا : إن الجمعيات والهيئات والشخصيات الصهيونية كانت تدفع أثمانا باهظة ومغرية لقاء الأراضي المشتراة، واستغلال الاستعداد الذي كان مالكوها يبدونه، لبيع تلك الأراضي، على أرضية عدم ارتباطهم الوطني بها . .

ثالثا : إن لجوء الحكومة العثمانية إلى طرح أراضي الفلاحين العاجزين عن دفع الضرائب، بالمزاد العلني، أدى عملياً إلى تمكين اليهود / الصهيونيين من الحصول على بعضها، بما يملكون من أموال . .

رابعا : كان انتقال الأراضي العربية إلى اليهود والصهيونيين يجري في كثير من الأحيان على خلفية

علاقات التفاهم بين العائلات الاقطاعية والمالكة وبين المسؤولين من الطبقة العثمانية الحاكمة .

فوق ذلك ، أدى اتباع أساليب التحايل وانتهاج الطرق الملتوية من قبل الصهيونيين إلى الإسهام بقسط وافر في الوصول إلى ما تم تحقيقه، وذلك بصرف النظر عن كون نسبة الأراضي المتسربة محدودة جداً (٨ بالألف) من المساحة الكلية لفلسطين البالغة نحو ٢٧ ألف كم مربع .

حول الوضع الفلسطيني العام

لقد جرى كل ذلك وسط ظروف محلية كانت تمر بها فلسطين آنذاك ، وفرت من ناحيتها عوامل إضافية للنجاحات الصهيونية في «غزو الأرض» . فزيادة على معاناة الشعب الفلسطيني جراء تراكمات الاحتلال العثماني التي تسببت رئيسياً بطغيان الفقر وانتشار الجهل، كانت سلبيات الواقع الذاتي تتفاقم بنفوذ الاقطاع والسلطة العائلية في أوساط السكان. ذلك أنه بينما كانت العائلات الكبرى تتقاسم الولاءات وعمليات التنافس «كان هناك تقسيم ثان أو طبقي للمجتمع الفلسطيني [قطاع ريفي وقطاع مديني] ، كانت فلسطين مجتمعا زراعيا. وتألفت نسبة ٨٠٪ من السكان تقريبا من الفلاحين والعمال الزراعيين. ورغم وجود (بروليتاريا) في المدن تضم الحرفيين والحمالين والمراكبيين والشغيلة غير المَهَرة ، فإن النفوذ الاجتماعي والاقتصادي (وبالتالي السياسي) داخل البلاد، كان بأيدي الطبقة العليا من كبار الملاكين في المدن، والوجهاء الدينيين والمهنيين، تضاف إليهم طبقة وسطى صاعدة من التجار وأصحاب المتاجر» (وينز ، ١٩٧٢ : ٢٣٨) .

هذا النفوذ ، أثر في موضوع الأرض وعلاقات الفلاحين بها، فالصفقات التي تمت فيما بعد بين مالكي الأراضي الإقطاعيين العرب من جهة وبين اليهود والصهيونيين من الجهة المقابلة، كانت تؤدي في الغالب إلى حرمان الفلاحين من أحد مقومات الحياة الطبيعية ـ السوية .

وعلى صعيد العلاقات القائمة، آنذاك ، بين اليهود والمواطنين العرب المسلمين لم يكن يظهر ما يقود إلى مواقف عدائية بين الجانبين قبل ظهور المشروع الصهيوني. ومعروف تاريخيا أن إقامة اليهود في الفترة السابقة لإنشاء المستوطنات اقتصرت على أربع مدن رئيسية في فلسطين (القدس ـ الخليل ـ طبرية ـ صفد) ، وكانت غالبية اليهود من المتدينين الذين يعيشون على نظام «الحالوكاه» في حين كان عدد منهم يتعيش من الأعمال الحرة والحرف والصناعات البسيطة . «وفي الحقيقة، كان السلام هو القاعدة السائدة طيلة قرون، والعداء هو الاستثناء ـ يقول ديفيز ـ وقد عاشت الأغلبية المسلمة من المواطنين مع الأقليتين اليهودية والمسيحية معا في توادد» (ديفيز ، بدون تاريخ : ١٥) . فإذا ما أخذ هذا المعطى في ظل معرفة «ان اليهود ساندوا نابليون في حملته على فلسطين عام ١٧٩٨ ، وأنهم عملوا لحساب جيوش محمد علي المصرية ضد عرب سوريا» (ياسين ، ١٩٧٥ : ٢٥) ـ وهما أمران يفترض أن يقودا بشكل ميكانيكي إلى تكهرب مديد للأجواء ـ عندئذ تترسخ الحقيقة التي تؤكد أن عرب فلسطين كانوا

يستوعبون كل ما يصدر عن أبناء الطائفة اليهودية في البلاد على المستويين التاريخي والجاري. وهو ما يعطي مقولة «التعايش الأخوي» المشار إليه مصداقية كبيرة . .

وثمة دلائل متعددة تبرهن أن اليهود كانوا يجدون الطمأنينة والأمن بين ظهراني العرب الفلسطينيين، دون أن يستثنى من ذلك اليهود الذين كانوا يأتون إلى فلسطين هربا من الاضطهاد في العديد من بلدان العالم، والذين كانوا يجدون من السكان العرب «ترحيبا أخويا بألوف منهم» (دومال ولوروا ، ١٩٦٨ : ٣٥) . لدرجة أن هرتزل نفسه أشار إلى الموقف الودي ـ Amicale ـ الذي يقابل به أهل البلاد المهاجرين اليهود الأوائل (Sayegh, 1966:41) . كما لاحظ أول قنصل بريطاني في القدس في تقاريره الأولى إلى حكومته عن حالة اليهود في فلسطين، مدى التسامح الديني السائد بالنسبة لليهود، ولا سيما بين المسلمين الذين سمحوا لليهود بالإقامة في الأحياء الإسلامية، والذين كانوا يجيرون اليهود عند الحاجة (الكيالي ، ١٩٧٩ : ٤٧) .

على هذه الوضعية كانت العلاقات بين العرب واليهود. فكيف تغيرت الصورة إذن ، ولماذا !؟!

بداية التحوّل . . ومسألة الوعي

من الواضح أنه مع أواخر فترة الاستيطان التمهيدي، وخلال مرحلة «الاستيطان الروتشيلدي» ، التي تضمنت قدوم أعداد كبيرة نسبيا من المهاجرين اليهود ألفى العرب أنفسهم أمام «نموذج جديد» من اليهود يختلفون في ممارساتهم وفي تكوينهم الفكري ـ النفسي ـ الاجتماعي عن الطائفة اليهودية التي كانت تقيم في فلسطين. وبهذا «بدأ في الظهور يهود جدد خرقوا مناطق الاستيطان القديم والطريقة التقليدية في الحياة. وخلق الاستيطان الحديث فرصا واسعة للنزاع بين المستوطنين الجدد. وكانت ردود الفعل لهذا التغلغل الصهيوني مبكرة رغم أنها كانت متقطعة» (قاسمية ، ١٩٧٣ : ٣٠) . وهكذا إزاء عمليات السيطرة الصهيونية على الأراضي، وتأثر الفلاحين بتبعات هذه السيطرة، حمل الواقع الجديد بذور «تسمم العلاقات» بين المواطنين العرب وبين المستوطنين. وغدا واضحاً أن الموقف من اليهود لم يتبدل إلا بعد أن «أخذت طبيعة الوجود اليهودي في فلسطين تتحول عن الطابع الديني والمعايشة إلى الطابع الاستعماري الاستيطاني الزراعي بوحي من الأفكار الصهيونية والسيطرة، الأمر الذي عكس نفسه تلقائيا في تغير موقف اليهود من السكان العرب في البلاد» (الكيالي ، ١٩٧٩ : ٤٨) .

وخلافا للآراء التي تنزع صفة «المعارضة الواعية» عن الموقف الفلسطيني العام، ثمة ما يفيد بأن الوعي الوطني كان حاضراً في ثنايا هذا الموقف ، وإن كان لم يتبلور بصورة ناضجة كليا من الناحية السياسية . .

على هامش المناقشة، إذا كانت الفترات التاريخية المتعاقبة قد سجلت انتفاضات الشعب الفلسطيني ضد الغزاة والمحتلين (كما هو الحال مثلا في ثورة ظاهر العمر، ومواجهة أبناء نابلس والقدس

وطبرية للسلطات العثمانية في سنوات الأربعينيات والخمسينيات من القرن التاسع عشر احتجاجاً على الضرائب الحكومية والخدمة العسكرية . .) (كوتلوف ، ١٩٨١ : ٢٧٩) ، نتساءل إذا كان قد جرى ذلك سابقا، فكيف حين يتعلق الأمر بالاستيلاء على الأراضي !؟! ثم إن هناك محتوى لا يمكن تجاهله في حياة عرب فلسطين يتمثل بأن «فلسطين لم تكن معزولة عن التيارات والاتجاهات السياسية الجديدة في المنطقة . . ففي أعقاب وقفة عرابي في وجه الغزو البريطاني لمصر، بعث القنصل البريطاني في القدس بتقارير (إلى حكومته) ـ عام ١٨٨٢ ـ حول تجاوب عرب فلسطين مع ثورة عرابي إلى حد أدى إلى هياج واضطرابات في كل من يافا والقدس . . . وبعد سنتين من تاريخ هذا التقرير (أي سنة ١٨٨٤) بعث القنصل بتقرير آخر حول ردة الفعل الفلسطينية لثورة المهدي في السودان ، يؤكد فيه ان هناك تعاطفا مكبوتا مع المهدي كعربي يناضل من أجل جنسه العربي ضد السيطرة العثمانية وسوء الحكم العثماني» (الكيالي ، ١٩٧٩ : ٤٧) . في حدود المنطق الصوري، لا بد من التكهن بأن الوعي الفلسطيني إزاء الغـزوة الصهيونية غير قابل للفصل عن الموقف من الغزاة والمحتلين . وكان ينبغي أن يكون موازيا لتعاطف الفلسطينيين مع التطورات النضالية الجارية آنذاك في المحيط العربي، إذ لا يمكن تجزئة الوعي الذاتي، باستمراريته، مثلما لا يمكن التفريق بين مستوييه الوطني والقومي. فكيف إذا كان التحدي هو على نمط تأثر الشعب الفلسطيني بتبعات الاستيطان الصهيوني الذي يتهدد وجود الفلاحين ومصائرهم !؟!

على أية حال، تأتي الوقائع ومجريات الأمور، لتدفع الشك باليقين، في طبعها الموقف الفلسطيني من الاستيطان الصهيوني بصفة الوعي. وسيتضح ـ عبر استعراضها ـ كيف أنها ارتقت من مستوى إدراك الخـطر وإبـداء القلق، إلى الاحتجـاج المنظم بعد المقاومة المادية عبر الهجمات الفلاحية على المستعمرات الصهيونية .

إشارات مبكرة

نرصد العلامات البارزة في هذا المنحى، ابتداءً من مرحلة الاستيطان التمهيدي . ففي العقد الرابع من القرن التاسع عشر، كما يقر موشي منتفيوري في مذكراته ، حاول هذا الأخير إقناع إبراهيم باشا ووالده ـ محمد علي لتأجيره أرضا مساحتها ٥٠ فدانا ومائتي قرية عربية من قرى فلسطين ، لكنه أخفق في ذلـك. ومن الثـابت تاريخيا أن «مجلس القـدس الشريف» اعترض على هذا الطلب (عام ١٨٣٧) لمخالفته الشريعة، وان محمد علي قد صادق على الاعتراض المذكور (ياسين، ١٩٧٥ : ٢٤) .

إذا كان هذا الاعتراض يلتقي ، بحيثياته الدينية، مع ما أوجزه لاحقا شاب عربي في مواجهة نشـاطات جمعية البيكا بقوله «سوف نبذل كل ما لدينا حتى القطرة الأخيرة من دمائنا للحيلولة دون استيلاء غير المسلمين على الحرم الشريف» (الكيالي ، ١٩٧٩ : ٥١) فإن رسالة أحد أبناء القدس إلى صحيفة «الجوائب» العثمانية عام ١٨٦٨ توحي بأن التقديرات الفلسطينية كانت منذ ذلك الحين تتعدى البعد الديني لترتقي إلى مصاف الإحساس الوطني / السياسي بالخطر .

« فبعد أن يذكر الكاتب قدوم أحد أعضاء جمعية الأليانس إلى القدس ـ الذي قال : إن مُراد الجمعية أن تشتري حقولا ومزارع في الأرض المقدسة ليتعلم أولاد اليهود الزراعة والحراثة ـ يلفت الكاتب نظر الدولة العلية أن تنظر في أمورنا وتتدارك أحوالنا وإلا فإن اليهود لا يلبثون أن يجلونا من هذه الأرض كما أجليناهم من جزيرة العرب»[1] . إن هذا الشخص العادي الذي كان يرى النتيجة المترتبة على استيطان اليهود في فلسطين عام ١٨٦٨ ـ أي قبل ثمانين عاما من نكبة ١٩٤٨ ـ وآنذاك لم يكن الاستيطان التأسيسي والاحتكاك بين العرب والصهيونيين قد ظهرا بعد ، يثير مسألة هامة هي : كيف تسنى له الحديث عن احتمالات قيام اليهود بإجلاء العرب من أرضهم في وقت لم تتأسس فيه المنظمات الصهيونية السياسية التي شرعت في إنشاء المستوطنات ، وفي وقت لم تبرز فيه مشكلة تسرب الأراضي للصهيونيين !؟!

التدقيق في هذا الأمر المثير حقا، وإن كان يقود إلى اعتبار فكرة الإجلاء المحتمل المذكورة مجرد تقدير يقفز إلى الذهن مع الصور والهواجس المختلفة ، دون وجود ما يستدعي عنفها وصراحتها، فإنه ـ التدقيق ـ ينبيء عن أن تلك الرسالة عكست نوعا من القلق لدى عرب فلسطين حيال التحرك اليهودي الجديد، الذي اتخذ هذه المرة طابع شراء الأراضي. وعليه، نميل إلى الحكم على الرؤية الثاقبة لصاحبها بأنها أكثر من «تصور فردي» وتقترب من أن تكون تعبيراً عن «إحساس جماعي بالخطر» مرهون بالنوايا اليهودية آنذاك .

ويتعزز هذا الحكم حين نعلم أن بوادر معارضة العرب في فلسطين لبيع الأراضي لليهود، ظهرت عندما منحت السلطات العثمانية قطعة أرض عام ١٨٧٠ لشارل نيتر لإقامة مدرسة زراعية يهودية عليها (وهب الله ، ١٩٨٣ : ٥٢) ، ثم ان هذه المدرسة / المستعمرة ومنذ اللحظة التي بنيت فيها «كانت تلقى معارضة الفلاحين في القرى المجاورة وحدثت مشاكل حول حدودها ، كما أتلف الفلاحون قسما من مزروعاتها، ذلك أنهم لم يرّحبوا بوجود مؤسسة أجنبية تتوسط قراهم» (عوض ، ١٩٨٣ : ٧٣) . وهنا نقطع التداعيات حول ضرورة تحري البواعث الحقيقية الكاملة لأوجه السلوك العربية تجاه المستوطنات اليهودية لأن الأمر ـ بنظرنا ـ ليس نابعا فقط من عدم ارتياح لمؤسسة أجنبية تتوسط قرى الفلاحين ، بل هو ، كما سنعالج ذلك في حينه، محصلة يستند فيها الموقف الفلسطيني الرافض للاستيطان على أساس علاقة «التحدي والاستجابة» التي كانت تؤطر التفاعلات الجارية بين المواطنين العرب والمستوطنين اليهود ، ومعالجة كهذه تستوجب الإلمام قبلاً، بالمعالم البارزة في التطورات اللاحقة .

الاستياء . . تعبيرات جديدة

بين المحطات في مسار المواجهة، يستوقفنا مآل الاحتكاكات بين العرب والمستوطنين إلى حد قيام الفلاحين من أبناء قرية الجاعونة (قضاء صفد) بالهجوم على مستعمرة «روش بينا» عام ١٨٨٣ . ومنذ ذلك الحين أصبح مألوفا أن تتكرر الهجمات العربية على المستعمرات الصهيونية. فنجد أنه في آذار (مارس) ١٨٨٦ شن الفلاحون المطرودون من أرضهم في الخضيرة وملبّس هجوما ضد مستوطنة «بتاح

تكفا» . ووقع هجوم آخر في تشرين الأول (اكتوبر) ١٨٨٨ ضد مستوطنة «غديرة» . وفي آذار (مارس) ١٨٩٣ ضد «رحبوت» . وفي ١٨٩٦ ضد «بئير طوفيا» . وفي أيلول (سبتمبر) ١٩٠١ ضد الخضيرة . كما استمرت المشاحنات بين أبناء المطلة العرب وبين المستوطنين (جريس ، ١٩٧٧ : ١٤١) بعد أن انفجرت المواجهة ضد موظفي روتشيلد الذين حصلوا على أرض المستوطنة بالاحتيال «وبمساعدة موظفي السلطات العثمانية وبقوة المال وجنود الحكومة» (وهب الله ، ١٩٨٣ : ٥٣) . . هذه النماذج مما سجلته مرحلة التأسيس الرسمي للاستيطان الصهيوني، توضح كيفية تعامل الفلاحين الفلسطينيين مع الوضع الجديد. وهو تعامل لم ينفصل فيه استخدام العنف عن اللجوء إلى أشكال التذمر السياسية والدبلوماسية التي عبرت عن نفسها من خلال الاحتجاج والعرائض المرفوعة من قبل عرب فلسطين إلى الآستانة .

في هذا الإطار، سجل العرب الفلسطينيون استنكارهم للنشاط الصهيوني، عندما «بعث وجهاء القدس عريضة احتجاج ضد رشاد باشا ـ متصرف سنجق القدس ـ عام ١٨٩٠ لمحاباته الصهيونية» (ياسين ، ١٩٧٥ : ٢٧) . وفي العام التالي (٢٤/٦/١٨٩١) أبرق وجهاء القدس إلى الصدر الأعظم ـ رئيس الوزراء العثماني ـ «يعبرون عن تخوفهم من وصول أعداد كبيرة من المهاجرين اليهود، ويطالبون بمنع اليهود من دخول فلسطين نظراً لعدم قدرة المسلمين من السكان على منافسة المهاجرين اليهود لهم في النواحي الاقتصادية ، مما ينجم عنه سوء الحالة الاقتصادية للسكان» (عوض ، ١٩٨٣ : ١٣٢) كما يطالبون في البرقية «بإيقاف بيع الأراضي واتخاذ التدابير الفعالة لتنفيذ القيود الرسمية» (مؤسسة الدراسات الفلسطينية ، ١٩٧٣ : ٢٠٣) بشأن هجرة اليهود وشراء الأراضي .

من الجدير بالملاحظة هنا ، أن الإعراب عن الاستنكار لم يقتصر على الطبقات الفلاحية والوجهاء ، وإنما شمل بعض رموز الفعاليات الاقتصادية الذين تخوفوا من عواقب التنافس الاقتصادي بنتيجة تدفق رؤوس الأموال اليهودية والمستعمرين اليهود (وينز ، ١٩٧٢ : ٢٣٩) . وقد أثر التجار العرب في نجيب الحاج رئيس تحرير «أبو الهول» القاهرية الذي اتهم الغزاة بمصادرة موارد عيش العرب، وذلك إثر رحلة قام بها إلى فلسطين عام ١٨٩٥ (الكيالي ، ١٩٧٩ : ٤٩) .

مع إقرار «برنامج بال» في المؤتمر الصهيوني الأول (١٨٩٧) كانت الجهود الفلسطينية المحلية تتركز على الحيلولة دون تسرب أراضي أخرى للصهيونيين ، «فترأس مفتي القدس محمد طاهر الحسيني هيئة محلية ذات صلاحيات حكومية مهمتها التدقيق في طلبات نقل الملكية في متصرفية القدس، وحال بذلك دون حصول اليهود على أراضٍ زراعية جديدة لسنوات عديدة» (الكيالي ، ١٩٧٩ : ٥٠) . كما أسس الفلسطينيون في يافا (١٨٩٧) الحزب الوطني لمحاربة الصهيونية ، وعد الحزب التعامل مع الصهيونية جريمة قومية (المسيري ، ١٩٨٣ : ١٣٥) .

وفي مطلع آذار (مارس) من العام ١٨٩٩ بعث يوسف ضياء الخالدي ممثل القدس في برلمان مدحت باشا ـ مجلس «المبعوثان» ـ ١٨٧٧ ، ورئيس بلديتها المنتخب لعدة سنوات ، وكان في السبعين من عمره، بعث برسالة طويلة إلى تسادوك كاهن حاخام فرنسا الأكبر والصديق المقرب من تيودور

هرتزل وماكس نوردو (رزوق ، ١٩٦٨ : ١٣٧) بيّن فيها بالحجج وبصياغات تمت بعناية فائقة موقفه ازاء النشاطات الصهيونية في فلسطين .

انطوى هذا الموقف ـ بعد إقرار الخالدي بوجود مشكلة يهودية في أوروبا ـ على تحذيره من أن قيام دولة يهودية في فلسطين لا يمكن أن يتم دون اصطدامات وصراع دموي ، بسبب المعارضة العربية لقيام مثل هذه الدولة . وبصرف النظر عما يقال عن تسليم يوسف الخالدي بعدم إمكانية المجادلة حول «حقوق اليهود في فلسطين» ومخاطبته الحاخام كاهن بعبارة «إنها حقا بلادكم التاريخية !» فإننا بالقفز فوق هذه الإشكالية ، نَعدّ هذه الرسالة واحدة من علامات الوعي الفلسطيني المبكر للخطر الصهيوني، حيث اعترض الخالدي على مساعي الصهيونيين لتغيير هوية فلسطين، مذكّرا بقوة الحقيقة في أن فلسطين جزء لا يتجزأ من الامبراطورية العثمانية ويسكنها غير اليهود . وبعد أن توقع الخالدي قيام حركة شعبية ضد اليهود لا تستطيع الحكومة العثمانية قمعها رغم حزمها ، نلاحظ أنه دعا بقوة إلى الكف عن محاولات الاستيطان الصهيوني في فلسطين، والبحث عن مكان آخر لإقامة الدولة اليهودية عليها، قائلا : «لا بد أن تتوقف الصهيونية الجغرافية ، ولا بد أن يُعمَّر إقليم آخر بدلا من فلسطين بعد انقضاء القرن» (٢) .

بعد ذلك تواصلت ظاهرة الاحتجاج والدعوة إلى إيقاف هجرة اليهود إلى فلسطين والحيلولة دون حصولهم على الأراضي . وشهد العام ١٩٠٠ حملة استنكار واسعة من العرائض الجماعية ضد شراء اليهود للأراضي الزراعية (الكيالي ، ١٩٧٩ : ٥٠) . . كان واضحا إذن أن السبب الأول والمباشر لمجمل المواقف الفلسطينية يتلخص في ما كانت تشهده فلسطين من خطوات عملية لبناء المشروع الصهيوني .

فماذا عن الدوافع التي غذّت مناهضة عرب فلسطين لهذا المشروع !؟! .

عوامل التحريض في الموقف الفلسطيني

إذا كان من الصعب حصر المحدِّدات التي حملت عرب فلسطين على انتهاج طريق الصدام السافر مع المستوطنين الصهيونيين باعتبارها منظومة متكاملة تتداخل فيها المسببات والنتائج، مع ذلك بامكان المحلل الوقوف عند أبرز العوامل التي قادت إلى المواجهة بين الطرفين .

أولا : قضية الأرض والبعد الاقتصادي للهجرة

تولدت النقمة العربية على المستوطنين ، منذ الأيام الأولى التي بدأت حيازة الأراضي تؤدي إلى المهاجرين اليهود الجدد . وأخذت تلك النقمة تزداد مع إجلاء الفلاحين العرب عن هذه الأراضي . . من هنا كان الاستياء العام الذي أثارته سيطرة المستوطنين على أراضي الفلاحين أحد «الجوامع الموحِّدة»

لهؤلاء الفلاحين، ومرتكز البدء في التحرك العملي الشعبي العام الذي سبق ـ كما رأينا ـ مختلف أشكال الاعتراض الأخرى على النشاط الصهيوني .

فإضافة إلى تعرض الفلاحين لفقدان مصدر الرزق الأول، من العمل بالفلاحة ، تخوّف عرب فلسطين على ما يبدو من أن بناء المستوطنات سيفضي في النهاية إلى تغيير جذري للأوضاع القائمة، سواء ما يتعلق منها بملكية الأرض أو بالواقع السكاني . وحين يتضافر ذلك مع مؤثر إفقار الفلاحين، ومع البطالة أو اضطرارهم للعمل كأجراء ومزارعين في المستعمرات الصهيونية واعتداء المستوطنين على «المجال الحياتي» لأنشطة الفلاحين، يتبين بجلاء كيف ستكون النتيجة، وهي توّضع الفلاحين في الطرف الآخر لعلاقة التناقض مع المستوطنين .

يقول دافيد وينز ـ الأستاذ في معهد الدراسات الإسلامية بجامعة ماك غيل ـ مبينا أحد أسباب مناهضة الفلاحين العرب الفلسطينيين للاستيطان الصهيوني «فالملاكون والمرابون العرب ـ ولهم كان كثير من الفلاحين مدينين ـ باعوا أراضيهم لقاء الأثمان المرتفعة والأسعار المغرية التي كانت الجمعيات الصهيونية على استعداد لدفعها ، لكن هذه الصفقات تمت على حساب الفلاح الذي لم يؤخذ بعين الاعتبار أبداً ، وغالبا ما جرى طرده من أراضيه المستأجرة . وأخذ الفلاحون يضمرون الأحقاد ضد المستوطنين الدخلاء» (وينز ، ١٩٧٢ : ٢٣٨ ، ٢٣٩) . ولا ننسى هنا التأثير الجانبي المرتبط بموضوع حصول الصهيونيين على الأراضي ، والذي يتبدى في عامل الشراكة والتواطؤ بين بائعي الأراضي والسماسرة من جهة وبين المهاجرين اليهود الأجانب من جهة ثانية ، ضد أبناء البلاد ومواطنيها العرب ، فمن المقدّر أن يكون هذا العامل قد أسهم في توتير علاقات المواطنين العرب بالمستوطنين . . . مرة أخرى ، إن الأسباب التي أملت ظهور موقف الفلاحين المناهض للنشاط الصهيوني ترجع أساسا إلى تبعات حصول هؤلاء على الأراضي . فقد «وجد كثير من الفلاحين العرب أنفسهم بين عشية وضحاها محرومين من حقوقهم ومقتلعين من الأرض التي عاشوا عليها شبه مستقلين . وجاء امتلاك اليهود لبعض الأراضي ، فرفع في وجههم الحواجز والسدود ، بعد أن كانت العادات المألوفة في البلد تقضي بالمشاركة العامة في المراعي الطبيعية . ثم ازدادت النقمة عندما أخذ الدائنون يستولون على أراضي الفلاحين المثقلين بالديون لبيعها إلى اليهود الأجانب» (مؤسسة الدراسات الفلسطينية ، ١٩٧٣ : ٢٠٣) .

أما بالنسبة للشرائح الاجتماعية غير الفلاحية، التي وإن كانت معاناتها لا تتعلق مباشرة بتسرب الأراضي، فقد تأثرت سلبا بالوضع الاقتصادي العام في البلاد، فضلا عن انعكاس الهجرة اليهودية على غالبية أبناء الطبقات المتوسطة والثرية في المدن ، على صورة تهديد لحالتهم الاقتصادية . . . حيث «انفردت فئة قليلة من الأسر الغنية والملاكة في الاثراء، والرضوخ أمام الأثمان المغرية التي عرضها المهاجرون (اليهود) لقاء حصولهم على الأراضي، بينما سارع أرباب التجارة وأصحاب المهن إلى الإعراب عن مخاوفهم لئلا تتحول الهجرة اليهودية إلى خطر اقتصادي يتهدد مصالحهم ويضيق عليهم ، تحت ستار المنافسة» (مؤسسة الدراسات الفلسطينية ، ١٩٧٣ : ٢٠٣) .

إن هذه المقدمات التي حكمت (الاتصال الأول) بين أبناء البلاد والمهاجرين اليهود، كانت ستؤدي حتما إلى النتيجة المنطقية المترتبة عليها، والمتمثلة بالوقوف في وجه المثير الرئيسي للمشكلات الجديدة / أي تزايد الاستيطان وقدوم المهاجرين الصهيونيين إلى فلسطين .

ثانيا : أفكار المستوطنين وتصرفاتهم

بمنظور الترابط بين المؤثرات ، لم يكن الموقف الفلسطيني تجاه عمليتي حرمان الفلاحين من أراضيهم والخطر الاقتصادي على الفعاليات المدينية، معزولاً عن التأثر بأنماط تفكير وسلوك المستوطنين اليهود ـ الصهاينة . بمعنى أن «العمليات الفدائية لم تكن ناجمة عن تجريد الفلاحين العرب من أراضيهم فحسب، وإنما أيضا عن التوجه العنصري / القومي للمستوطنين إزاء الشعب العربي عامة» (شلحت : ١٩٨٥ : ٥) . فقد جاءت غالبية المستوطنين إلى فلسطين بذهنية تنطوي على فكر عنصري يعتمد مقولات «النقاء وتفوق النقاء والرسالة الحضارية للمستوطنين ، إلخ» وبشكل لا يختلف عما ساد في التجارب الاستعمارية الأوروبية الغربية. وحاول المستوطنون صياغة علاقاتهم مع عرب فلسطين حسب هذه الرؤى . . .

ولما كانت النزعة الاستعلائية التي اعتملت في نفوسهم تشكّل جزءاً من نظرتهم إلى العرب، فثمّة ما يدعو إلى عدم استبعاد هذا المؤثر على الإحساس والوجدان العربيين. ثم إن الاستخفاف بوجود العربي ابن البلاد وبطريقة حياته، يعد أحد العوامل التي أسهمت في تدهور العلاقات بين الطرفين .

فعلى المستويات البسيطة، حين لا يحترم المستوطنون عرف «المرور في أراضي الغير» ، وحين لا يدركون معنى «الأرض المشاع» ، وعندما تتباين العادات والتقاليد ويتحول هذا التباين إلى مصدر احتكاك بين المواطنين العرب والمستوطنين ، ومع جهل هؤلاء تراث العرب ولغتهم وكيفية تفكيرهم . . الخ ، يصبح مفهوما، والحالة هذه، لماذا لم تنتف بواعث التوتر، حتى وإن اكتست العلاقات المتبادلة مظهراً سلميا في أكثر الأحيان . . .

يؤكد نيفيل مندل، أحد أبرز الباحثين المهتمين بتلك المرحلة، أن اليهود سببوا الازعاج لعرب فلسطين «بسبب جهلهم اللغة العربية وطرق العرب (المعيشية والحياتية) ، وأهانوا العادات المحلية. فمن عادة العرب مثلا أن يتقاسموا جميعا الكلأ الطبيعي الذي يعتبره الفلاحون هبة من الله» . ثم يشرح مندل أثر القسوة التي واجه بها المستوطنون تصرفات العرب، فيوضح أن اليهود نظروا إلى استفادة الفلاحين من هذا الكلأ لرعي مواشيهم على أنها انتهاك لحدود الاستيطان «وصمموا بسرعة على القبض على القطعان الشاردة ، وإجبار أصحابها على دفع غرامة لاسترجاعها. وتعمّد المستوطنون القسوة تجاه العرب المقبوض عليهم في حالة السرقة في محاولة لإحباط همة الآخرين» (مندل ، ١٩٦٥ : ٢٢) . . نقفز هنا عن مناقشة موضوع «السرقة» ونرجح انسياق مندل بصدده وراء ادعاءات الصهيونيين . . بقي أن نشير إلى وجود تأثير ناجم عن الاضطهاد والتمييز اللذين كان يواجههما الشغيلة العرب في المستوطنات الصهيونية، كواحد من محفزات المناهضة الفلسطينية للمستوطنين. وتعترف دراسة نشرت

بالعبرية ، في وقت متأخر، أن الاضطهاد الواقع على العرب كان مركّبا «فهم أدنى درجة بكثير من فقراء المستوطنات ، وكان التمييز ضدهم يشمل مختلف النواحي» (مؤسسة الأرض للدراسات الفلسطينية : ١٩٧٨ : ٧٤) . وسنرى عند تناول الرؤى والمعالجات الدراسية الصهيونية لتلك الفترة ، اعترافات تبين أن تصرفات المستوطنين الأوائل ونظرتهم المشوهة إلى العرب ، كانت تحدد نمط تعاملهم مع الجوار، الأمر الذي عمّق الهوة بين الجانبين . . وما دمنا في هذا القطاع من محفزات الموقف الفلسطيني، فلا يمكن التقليل من أهمية «المستجدات» المرتبطة بالموضوع الديني . فالتطور الذي حصل في المستوى الديمغرافي للمستوطنين، كان مشفوعا بازدياد عدد الكُنُس والمدارس اليهودية وبتكريس للتغير في طبيعة التواجد اليهودي على أرض فلسطين، عن طريق الاهتمام الصهيوني بالتعاليم والمعارف اليهودية، والدمج بين الدين والاستيطان في تنفيذ المشروع الصهيوني . . نعتقد أن هذا الواقع جعل من المتعذر، بالنسبة للعرب المسلمين في فلسطين، فصل الجانب الديني / الثقافي عن الجانب الاستعماري . وعليه، إن اقتران الثابت الديني اليهودي بالمتغير الجديد ـ الكُنُس والمدارس ـ استدعى تغيراً في الموقف الفلسطيني العام ، من خلال التنبه إلى الخطر الداهم الذي أخذ يتهدد الهوية العربية ـ الإسلامية لفلسطين .

نقطة أخيرة ، لا تبتعد عن هذه التقديرات ، وتبدو إشاراتنا إليها ضربا من المجازفة ، تقوم على الاعتقاد بأن الفلاحينْ العرب المسلمين أضمروا استياء وكراهية حيال بعض المستوطنات الصهيونية نظرا لقيامها بتصنيع بعض المواد الاستهلاكية التي لم تجد قبولا بها، وتستفز القيم والمشاعر الإسلامية، ونعني بذلك : صناعة الخمور . . وبالرغم من عدم توفر معلومات منشورة ـ في حدود معرفتنا وتحرينا ـ بشأن هذه المسألة ، لا نستبعد أن يكون ظهور المشروبات الكحولية في بعض الأسواق ، وتعاطيها في أوساط المستوطنين (وربما بين قلة من العرب) أمران بارزان رفدا بواعث الاستياء والكراهية المذكورين . . ومعروف أن «مستوطنة ريشيون لتسيون ضمت عنابر روتشيلد الشهيرة بمخزونها من البراندي والنبيذ، حصيلة أكثر من مليون ونصف المليون من أشجار الكرمة» (القشطيني ، ١٩٨٦ : ١٧٧) .

ثالثا : أثر الاتجاهات القومية والمثقفين

يتصل بالمحرِّضيْن السابقين ـ تسرب الأراضي وسلوك المستوطنين ـ واقع موضوعي يتبدى بوجود استعداد لدى عرب فلسطين لمواجهة القوى الدخيلة ، سيما وأنهم تفاعلوا مع التطورات النهضوية العربية العامة، وفي بلاد الشام ومصر على وجه التخصيص، عندما بدأت اليقظة العربية تتبلور مع تشكيل الجمعيات الأدبية والأندية الثقافية والاجتماعية وحلقات التلاميذ حول المفكرين والمصلحين العرب البارزين ، منذ أواسط القرن التاسع عشر .

صحيح أن إسهامات عرب فلسطين في هذه اليقظة كانت متواضعة، إلا أن انتماءهم الوطني / القومي ، كان يخلق لديهم قابلية للتجاوب مع المطالب التي طرحتها الحركة القومية العربية . وبالمقابل، كان بعض نشطاء هذه الحركة في تسعينيات القرن الماضي يستشعرون ما تواجهه فلسطين من مخاطر،

الأمر الذي شحن التوّحد بين الفلسطينيين ومحيطهم العربي بمزيد من القوة، ومكّن الفلسطينيين من امتلاك قدرة إضافية في التصدي للغزاة .

في النطاق الفلسطيني، من المقدَّر أن يكون الشيخ علي الريماوي[٣] (١٨٦٠ ـ ١٩١٩) قد أدى دوراً متميزاً في توجيه أنظار المتعلمين من أبناء عرب فلسطين إلى خطورة الاستيطان الصهيوني في البلاد ، باعتباره العربي الوحيد الذي أصدر صحيفة شهرية في القدس منذ العام ١٨٧٦ ، بعنوان «الغزال» (خوري ، ١٩٧٦ : ٣) ـ وهي أول وآخر صحيفة عربية خاصة صدرت في فلسطين خلال الثلث الأخير للقرن التاسع عشر ـ إلى جانب قيام الشيخ الريماوي بتحرير القسم العربي لجريدة «القدس الشريف» الرسمية التي أصدرتها الحكومة العثمانية في العام ذاته .

وطبقاً لإفادة شفوية دقيقة بحوزة الكاتب، مصدرها أحد المهتمين[٤] ، كانت «الغزال» جريدة «سياسية ـ أدبية ـ زراعية» . أي كما يستشف من التعريف بها، كانت تُعنى بالأحداث الجارية المدركة التي تستحوذ اهتمام الشيخ الريماوي، إضافة إلى أنها عنيت بالشعر وبالمواضيع ذات العلاقة بالأراضي والفلاحة في فلسطين . . وتقول الإفادة : إن الشيخ الريماوي كان ينظم بعض المواضيع السياسية والزراعية شعرا، وينشر قصائده في «الغزال» التي كانت صحيفة جيدة الانتشار بين متعلمي عرب فلسطين . ولسبب ما غير معروف توقفت هذه الجريدة عن الصدور مع نهاية القرن الماضي . ويعود الشيخ الريماوي إلى إصدار جريدة «النجاح» الأسبوعية عام ١٩٠٨ ، وكانت على غرار سابقتها . . ما يهمنا من كل ذلك أن جريدة «الغزال» كانت ـ في فترة الدراسة ـ المطبوعة الوحيدة التي تصدر بالعربية إلى جانب «القدس الشريف» جريدة الحكومة العثمانية . . وحول طبيعة ما يمكن أن تنشره «الغزال» آنذاك ، ليس معقولا أن تبتعد مواضيعها عن الاهتمامات الفلسطينية العامة، وأولها موضوع تسرب الأراضي وإنشاء المستوطنات اليهودية، ثم الاحتكاكات التي شهدتها منطقتا الجليل والمثلث بين عرب فلسطين والمستوطنين . وقد لاحظنا في مكان آخر أن هذه الاحتكاكات كانت من العنف بحيث تطورت إلى هجمات للفلاحين العرب بين المستوطنات الصهيونية ومن الطبيعي أن يعلم الشيخ الريماوي بتفاصيلها، نظراً لعلاقته مع المسؤولين العثمانيين في فلسطين . . وبالتالي فإن النظر إلى هوية «الغزال» كجريدة «سياسية ـ أدبية ـ زراعية» يحتم الاعتقاد بأنها كانت تتحدث عما يجري في البلاد، فتتخذ موقفا مناهضا للاستعمار الاستيطاني، بفعل تكوين صاحبها وتنشئته الأزهرية وتاريخ عائلته المعروف . .

ويغدو منطقياً بعد ذلك أن تكون جريدة «الغزال» قد أسهمت في تعريف قرائها والمهتمين بها على الظروف الصعبة التي تمر بها فلسطين، وضمنا على خطورة إنشاء المستعمرات فوق أراضي الفلاحين ؛ وربما أيضا شرح الوضع الزراعي في البلاد والآثار التدميرية لقدوم المهاجرين اليهود . .

عموما ، نعتبر الشيخ علي الريماوي واحداً من ألمع الشخصيات التي رفدت المعرفة الشعبية الفلسطينية للواقع بمحتويات «سياسية» خلال المرحلة المدروسة . وعلى هامش هذه النقطة يظل الرجل موضوعا يستحق الاهتمام لمشروع بحث متكامل برسم القادرين على جمع المعلومات الكافية عنه، وبخاصة من ملفات الدوائر التركية المعنية .

وبالمثل، عرف من أبرز المثقفين في تلك الفترة، إبراهيم الدباغ (الهواري ، ١٩٧٩ : ٢٥) (١٨٦٠ ـ ١٩٤٦) الحائز على الشهادة العالية من الأزهر ، والذي لازم عبد الله النديم أحد رجالات الثورة في مصر أثناء لجوء هذا الأخير إلى يافا إثر اخفاق حركة أحمد عرابي . . وكذلك يوسف ضياء الخالدي (١٨٤٢ ـ ١٩٠٦) المشار إليه في موضع سابق من البحث، بالإضافة إلى العديد من رجال الدين، الذين يرجح أن يكونوا قد حضوا المواطنين العرب على عدم التفريط بالأراضي ، ومقاومة صفقات السماسرة والاقطاعيين .

إنها ثلاثة عوامل إجمالية، كانت المحرك الأهم في معارضة عرب فلسطين للصهيونيين الذين كانوا بدورهم يواجهون هذه المعارضة، ويعالجون الأوضاع القائمة على أكثر من مستوى .

ردود ومناورات المستوطنين

منذ البدء كانت الخيارات التي انتصبت أمام سكان المستعمرات الصهيونية لا تخرج عن حدود كيفية حل المشكلات والتكيف مع البيئة المحيطة بهم.

فمن جهة أولى، كانت المشكلة الرئيسية الداخلية هي تأمين المرتكزات المادية للاستيطان الزراعي. حيث كانت الخبرة الزراعية لديهم معدومة تقريبا، وكان عليهم بالتالي تشغيل الفلاحين في ظل عدم القدرة على استقدام العمال من الخارج، بفعل القيود المفروضة على الهجرة .

على أن الاستعانة بالفلاحين العرب في ميادين العمل الزراعي داخل المستوطنات، وفي حقولها، كانت خاضعة لاعتبارات متعددة أبرزها :

١ ـ رغبة المستوطنين بالتعلم من الفلاحين أساليب العمل في الأرض، واستقاء مختلف أوجه المعرفة المتعلقة بالشؤون الزراعية .
٢ ـ عزوف أعداد غير قليلة من المستوطنين عن بذل الجهود المضنية التي تتطلبها الزراعة لأسباب كثيرة منها تضاؤل الحافز والمبادرة لديهم، ونظرتهم إلى أنفسهم كأنهم أجراء وموظفون عند البارون دي روتشيلد .
٣ ـ محاولة المستوطنين تفريغ مشاعر الاستياء والمواقف الغاضبة للفلاحين العرب، جرّاء استلاب أراضيهم، على أمل صرف أنظارهم عن مخلفات هذا الاستلاب .

وفي حالات متعددة ، وافق المسؤولون عن المستعمرات على السماح للعرب باصطحاب عائلاتهم معهم ، فكان الرجال يعملون كأجراء في الحقول العائدة للمستوطنات، بينما كانت نساؤهم وبناتهم يخدمن في منازل هؤلاء المسؤولين، تحت ضغط الحاجة والعوز بشكل رئيسي. كما وُجدت حالات لجأ فيها بعض الفلاحين إلى بناء منازل لهم بالقرب من المستعمرات ـ انسجاما مع رغبتهم في استغلال فرص العمل المتاحة لهم فيها .

ربما يقال هنا ان الفلاحين استفادوا من تشغيلهم في المستوطنات . حسناً، لكن حتى مع الحصول على أجور مجزية، فإن ما جرى لم يكن يضاهي الواقع القديم وحالة شبه الاستقلال التي كان الفلاحون العرب يتمتعون بها، مستأجرين أو مشاركين بصيغة «المحاصصة» مع مالكي الأرض العرب.

ومن **جهة ثانية** نتيجة للاحتكاكات والمجابهات المتكررة بين المستوطنين وبين المواطنين العرب، شرع المسؤولون عن المستوطنات يتدارسون سبل تأمين «الحماية الذاتية» للوقوف في وجه هجمات الفلاحين. وكانت أولى المستعمرات التي أخذت بهذه الفكرة «بتاح تكفا» (قاسمية، ١٩٧٣ : ٣١) ، ثم مرت كافة المستعمرات التي تأسست بعد قدوم مجموعة البيلو الأولى، بالتجربة ذاتها .

ففي مستعمرة «بتاح تكفا» جرى تنظيم وحدات دفاعية تضم «الفرسان والمشاة» . وفي «زخرون يعقوب» تشكلت (عام ١٨٨٧) منظمة مسلحة لحماية هذه المستعمرة أطلق عليها اسم «أغودات مكابيم فنطوري هموشافاه» . كما تأسست في رحبوت (عام ١٨٩٢) منظمة سميت «أغودات عسروت ـ رابطة العشرات» بمبادرة من ميخائيل هلبرن إحدى الشخصيات البارزة في النشاط الصهيوني في روسيا. وتشكلت في مستعمرة «ريشيون لتسيون» منظمة للحراسة من قسمين، أولهما للحراسة الداخلية وثانيهما للحراسة الخارجية (بدر ، بدون تاريخ : ١٥) . غير أنه أمام محدودية جدوى تشكيل «وحدات الدفاع» ولكون هذه التجربة لم تحل دون تكرار هجمات الفلاحين العرب على المستعمرات، فقد لجأ موظفو روتشيلد إلى البحث عن أساليب جديدة في الحماية «فبدلا من مظاهر القوة ضد جيرانهم وما تحدثه من خسائر وترد للعلاقات اشتروا [والأصح التمسوا] الحماية من القرى وانشأوا علاقات مع جيرانهم العرب وعهدوا بهذه الحراسة إليهم» (قاسمية ، ١٩٧٣ : ٣١ ، ٣٢) .

ومن **جهة ثالثة** لم يتوقف المستوطنون عن التحسب من جانبهم لمستقبل العلاقات مع الفلاحين والمواطنين العرب عموما، فانتهجوا طريق المُلاينة الظاهرية ، أي الاتفاق مع (حزب) الفلاحين، بعدما لمسوا استمرار نقمتهم واتسام صيغة العلاقات بصفة الغالب والمغلوب. فكان واضحا في أذهان المستوطنين، وفق هذا التصور، أنه بدون الاتفاق مع (حزب) الفلاحين، لن تسير العملية الاستيطانية كما يراد لها، فالمطرودون من أراضيهم لا يمكن ان يسلّموا بالحال التي وصلوا إليها، وعملهم في المستوطنات لن يكون بديلا للحل الذي يتطلعون إليه . .

بالنتيجة ، قد نتفق على أن هذه الردود والمناورات الصهيونية، كانت كافية في الحدود الدنيا لتجنب كثير من المآزق التي اعترضت الاستيطان . إلا أن ما تم إنجازه ، على أية حال، لم يؤد إلى «تغيير جذري» لمواقف الفلاحين بالرغم من تشغيلهم أو مواجهتهم عبر «اقتحام الحراسة» أو مهادنتهم . . ومع تفاقم المصاعب الحياتية للمستوطنين، راحت «القناعات الذاتية» لدى معظمهم تهتز «وهذا ما دفع المستوطنين في فلسطين ـ حين طرح مشروع أوغندا ـ (الذي اقترحه تشمبرلن وعرض على المؤتمر الصهيوني السادس ١٩٠٣) أن يكونوا جميعا أوغنديين في مواقفهم ، لفقدانهم الأمل في الصهيونية وإمكانية الاستمرار في عملهم (قاسمية، ١٩٧٣ : ٣٢) .

فيما بعد، جرى شيء مغاير على الأرض مع قدوم الاحتياطي الصهيوني وزّجه في المواجهة، ومع تزايد الدعم الاستعماري الغربي، وهذا هو الأهم خلال المراحل التي أعقبت استيطان موجة الهجرة الأولى.

رؤى المفكرين الصهاينة

استأثرت مرحلة إنشاء الاستيطان باهتمام كثير من المعنيين اليهود والصهيونيين، على مستوى التأريخ والدراسة وتوزعت المضامين الرئيسية لما كتبه هؤلاء وفق اتجاهات متعدّدة ، أهمها :

١ ـ انفراد مجموعة بالإعلان صراحة عن مواقفها الداعية إلى ترجمة «الاقتحامات اليهودية / الصهيونية» بوقائع متزايدة . .
٢ ـ التنبيه إلى خطورة الأوضاع القائمة، وإبداء الاقتراحات بهذا الخصوص، توقا إلى تلافي المشكلات.
٣ ـ التسجيل الانتقائي للأحداث وتقديم تفسيرات أحادية الجانب لما جرى .
٤ ـ تطمين العرب والادعاء بفائدة الاستعمار الصهيوني عليهم كستار لتمرير الخطوات الاستيطانية العملية .
٥ ـ اللجوء إلى ذرف «دموع التماسيح» على ما لحق بالعرب من ظلم، كمحاولة لصرف التوتر الداخلي تحت وطأة القسوة التي تمت بها آلية تنفيذ الاستيطان.

وإذ نلاحظ تداخلا بين مجمل هذه الاتجاهات، مبعثه تطرق غالبيتها إلى كليات المسألة الاستيطانية والمواجهة مع الفلسطينيين، فإن اختيار مواقف بعض المفكرين اليهود والصهيونيين، أمر يورد تحت عنوان التعرف على ملامح التقديرات الصهيونية العامة ، وتسليط الضوء على أوجه الفهم الصهيوني للموضوع .

كاليشر . . . الاستنفار

كان الحاخام زفي هيرش كاليشر (١٧٩٥ ـ ١٨٧٤) من أوائل الذين أسسوا جمعيات غايتها الاستعمار اليهودي في فلسطين، داعيا إلى ضرورة الاهتمام بإنشاء الاستيطان الزراعي وشراء الأرض هناك. وأبدى في صحفات كتابه «البحث عن صهيون ـ ١٨٦٢» انتقاده للذين رفضوا مجاراة أفكاره بهذا الشأن ، مركزاً على قداسة العمل في الأرض، ومعتبرا حجّة المعترضين من عمل الشيطان. فأصر على أن الفلاحة والزراعة هي السبيل الدنيوية والحافز الأول لحصول الخلاص [اليهودي] المرتقب والأخير (صايغ ، ١٩٧٠ : ١٣) . وبغية وضع أفكاره موضع التنفيذ راح يتنقل في الدول الأوروبية محرضا سكانها اليهود على الهجرة إلى فلسطين، فنجح في التأثير على مجموعة من أثرياء اليهود لشراء قطعة الأرض التي أقيمت عليها «مكفيه يسرائيل». ومنذ وقت مبكر «اقترح كاليشر إنشاء جماعات حراسة

تجمع بين العمل الزراعي والعسكري لحماية المستوطنات اليهودية من أي خطر يتهددهما ، خاصة من جانب السكان المحليين (وهم بالطبع من العرب) الذين وصفهم (باللصوص) ودعا إلى استعمال السلاح (دفاعا) عن المستوطنات حتى لو اقتضى ذلك إرسال فرقة يهودية مسلحة إلى ملاحقة (اللصوص العرب) في العمق العربي خارج حدود فلسطين» (محمود ، ١٩٨٤ : ٧٤) .

إن دعوة كاليشر هذه ، تبين أنه كان معنيا باستنفار المستعمرين اليهود لخوض معركة البدء بالاستيطان وتوسيعه ، محدداً مسار هذه المعركة منذ البداية ، المسار الذي لم يخرج عنه أداء موجة الهجرة الأولى ، التي جاءت إلى فلسطين بعد سنوات من وفاته .

آحاد هاعام ـ التبصير

بينما كانت جماعات المهاجرين تفد إلى فلسطين ، كان المفكر الصهيوني آشر غينز برغ يبين في مقالاته بمجلة «هاميليتز» الصادرة في أوديسه ـ والتي وقعها باسم مستعار هو «آحادهاعام ـ واحد من الشعب» ـ كيف يتعين العمل في فلسطين ببطء وعناية فائقة (صايغ ، ١٩٧٠ : ١٤١)·وبعد أن قام بزيارة فلسطين ، واطلع عن كثب على مجريات العمل الاستيطاني وعلى طريقة تعامل المستوطنين مع المواطنين العرب ، كتب مقالة بعنوان «الحقيقة من فلسطين» ـ ١٨٩١ ـ ضمّنها انطباعاته ، وجدد التأكيد فيها على التماس الوسائل الكفيلة بإنجاح العمل الصهيوني . فكتب يقول «فلسطين ليست بلداً غير مسكون ، وانها يمكن أن توفر مأوى لنسبة جد ضئيلة من اليهود الذين يعيشون مبعثرين في أنحاء العالم . وعلى الذين استوطنوا في فلسطين أن ينشدوا أولا صداقة الفلسطينيين بالتقرب منهم بلطف واحترام . ولكن ماذا يفعل إخوتنا في فلسطين !؟ العكس تماما . لقد كانوا عبيداً في منفاهم . وفجأة وجدوا أنفسهم يتمتعون بحرية لا حدود لها ، فأثار هذا التغير الفجائي فيهم نزعة إلى الاستبداد ، فعاملوا العرب بعداء وقسوة ، وسلبوهم حقوقهم بطريقة سافلة ، وآذوهم بلا سبب ، ثم تباهوا بأعمال كهذه ، ولم يهاجم أحد هذه النزعة الخطرة الحقيرة» (غرولنبرغ ، ١٩٨٢ : ٢٩ ـ ٣٠) . ثم يعالج آحادهاعام جانبا من الآفاق المحتملة لصيرورة النزاع بين المستوطنين وعرب فلسطين ، بعد أن يدين انتشار «الأفكار النمطية» عن العرب ، ويصحح الصور الخاطئة ، فيقول «نحن خارج فلسطين قد ألفنا الاعتقاد بأن العرب جميعا هم وحوش كاسرة من الصحراء ، شعب شبيه بالمغفلين الذين لا يفهمون ما يدور حولهم ولكن هذا خطأ كبير. إذ أن العرب مثل كل الساميين لديهم ذهن حاد مليء بالفطنة . العرب ، سكان المدن خاصة ، يرون ويفهمون أعمالنا ورغبتنا في البلد ، ولكنهم يتظاهرون بأنهم لا يلاحظون ذلك (. . .) انهم يعتقدون أن أعمالنا الحالية ستكون تهديداً لمستقبلهم ، ومن ثم فهم يحاولون أن يستثمرونا . وكذلك أن يأخذوا بعض المنفعة من القادمين الجدد ، حيث يكون ذلك ممكنا (. . .) وفي نفس الوقت فإنهم داخل نفوسهم يضحكون علينا . ولكن لو حان الوقت الذي يتطور فيه وجود إخواننا اليهود في فلسطين إلى حد كاف لتهديد السكان المواطنين بالإبعاد ، بقدر كبير أو صغير عندها لن يسلّم الأخيرون مراكزهم بسهولة»[٥] .

من الواضح أن ما يرمي إليه آحادهاعام ، ليس مناداته بالكف عن متابعة الخطوات

الاستيطانية، وليس الانتصار للعرب بكل تأكيد، وإنما هو بالضبط تحذير المستوطنين من مغبة الاستمرار في الموقف العدائي السافر، ومن خطورة الاستهانة بالردود العربية . فيتولى آحادهاعام بذلك مهمة تبصير المستوطنين بما ينبغي عليهم أن يفعلون، كضمان أساسي لإنجاح التجربة .

سيملانسكي . . التوصيف والقَوْلَبَة

في ذلك الحين، وتحديداً منذ ١٨٩١، كان موشى سيملانسكي (١٨٧٤ ـ ١٩٥٣) أحد المستوطنين الأوائل القادمين من أوكرانيا إلى يافا بفلسطين. وأصبح فيما بعد أبرز الذين عالجوا بالدراسة مشكلات «اليشوف»، وضمنا مشكلة العلاقة بين العرب واليهود في البلاد، التي أولاها اهتماما كبيراً . . أقام سيملانسكي في «رحبوت» وكتب قصة «الشيخ عبد القادر» التي كانت «أول محاولة في الأدب العبري ـ كما يقول أهرون كوهين ـ لوصف رد الفعل العاطفي للعرب تجاه الاستيطان اليهودي» (قاسمية ، ١٩٧٣ : ٣٠) . ويذكر في إحدى مقالاته أنه «منذ اليوم الأول اتخذ المواطنون (العرب) موقفا متشككا تجاه المستوطنين الجدد، كما يحدث عادة في كل بلد وفي كل زمن يشك فيه السكان القدامى بالمستوطنين الجدد (. . .) وخاصة إذا كان السكان الوطنيون لهم طريقة حياة بدائية نسبيا (. . .) ويشعرون بالضعف والعجز (. . .) عن مقاومة المهاجرين الجدد الذين يخشون أن يحرموهم حقوقهم الطبيعية» (قاسمية ، ١٩٧٣ : ٣٠) .

نحن، والحالة هذه ، أمام محاولة يسعى فيها سيملانسكي لتجاهل البواعث الحقيقية للشكوك العربية، فيقلل من خصوصية القلق الفلسطيني باخضاعه إلى «حكم عام» يشمل بين محتوياته «المفردة الفلسطينية» ، دون أن يكلف نفسه عناء الإشارة إلى دور الاستيطان ومسؤولية المخطط الصهيوني في إثارة المخاوف لدى عرب فلسطين. بل ويذهب أيضا إلى الاعتقاد كغيره من مروجي الديماغوجيا الصهيونيين، بأن موقف العرب لا يختلف عن أي رد فعل يبديه السكان الأصليون (Natives) الذين يتم رسم صورتهم في القاموس الاستعماري انهم متخلفون ويعيشون حياة بدائية لم تصل المرحلة الإنسانية . . وقد كرر سيملانسكي هذه الفكرة المسبقة في مواضع كثيرة من كتاباته. وعلى سبيل المثال أورد في كتاب نشره عام ١٩٣٠ كيف ترتب على تأسيس «بتاح تكفا» في مساحة من الأراضي العربية أن «استفادت القرى المجاورة بما تناولته من ثمن هذه المساحة [حيث] انتقلت إلى زراعة أكثر حداثة. أما أولئك الذين لم يبيعوا قسما من أراضيهم على غرار ما فعله زملاؤهم فإنهم لا زالوا يتمرغون في حمأة الفقر والحاجة والتأخر والانحطاط» (سيملانسكي ، ١٩٣٠ : ٣٧) .

كما اشتهر سيملانسكي بين العديد من الكتاب الصهيونيين الذين تناولوا استيطان الهجرة الأولى، بإيراد الكثير من المعلومات حول حوادث الصدام والمواجهة بين المستوطنين والفلاحين. فنراه يقدِّم وصفا لهجوم عربي على قرية الخضيرة بقوله «في تلك الليلة الطويلة المرعبة انتفض الجميع في وجههم، يريدون مسحهم عن وجه الأرض، حتى لا يظلوا شوكة في جنباتهم» (دومب ، ١٩٨٥ : ٣٧) . وفي مكان آخر وصف هجوما على «رحبوت» ، تحدث فيه عن انقسام القبيلة العربية التي أقيمت المستوطنة على أرضها قسمين ، أولهما قَبِل بالمستوطنين اليهود الجدد، والآخر قرر إزاحتهم وذلك

بتخريب مزروعاتهم ، معتبراً أن مُلاّك الأراضي العرب الذين باعوا أرضهم لليهود أورثوهم كل مشاكل الفلاحين وخلقوا مشاكل جديدة . . ويتحدث سيملانسكي عن حادثة أخرى في «بئير طوفيا» حيث كان الفلاحون (يدَّعون) ـ حسب تعبيره ـ ملكية جزء من أرض المستوطنة التي اشتراها اليهود. وعندما بدأ اليهود يعملون في الأرض هب الفلاحون ضدهم (دومب ، ١٩٨٥ : ٣٧) . وهنا يقوم سيملانسكي بتسويق بعض الآراء التضليلية التي يختار بثها في ثنايا تعليلاته لنشوء النزاع بين الطرفين. فيدعي أنه «ربما كان ممكنا حل المشكلة [في بئير طوفيا] بدفع تعويضات ترضي العرب الغاضبين ، ولكن الرجل المسؤول كان غريبا (على غير دراية بعادات البلد) ولم تسوَّ المشكلة إلا بعد عرضها على المحكمة وبعد خسارة فادحة تحملها اليهود. . ومن أسباب النزاع بين العرب واليهود أيضا عادات الرعي العربية؛ كان اليهود يرفضون حقوق العرب في الرعي» (دومب ، ١٩٨٥ : ٣٨) . . عن سيملانسكي ، تتحدث د. ريزا دومب ـ الكاتبة الصهيونية ـ وترى أنه فهم أهمية العادات بالنسبة للعرب «ولذلك كان يحترم عاداتهم ويتسلح بالصبر في مفاوضتهم (. . .) وفي كثير من المناسبات ومهما كانت القضايا ملحة كان يضبط نفسه وينتظر الفرصة المناسبة . . مرة عندما زار مع صديقه الحميم اليعازر بعض البدو في النقب، سرّ مضيفهم البدوي من اليعازر لأنه جلس على الأرض حسب العادات البدوية، ورفض الجلوس على كرسي بلا ظهر قدمه له البدوي المضيف، وبسبب ذلك أصبح اليعازر صديقا للبدوي . . هذا الحادث [تضيف د. دومب] علَّم سيملانسكي ضرورة أن يدرس العادات العربية. وتورد الكاتبة بعض المقاطع مما كتبه سيملانسكي في وصف العرب، يقول فيها «انهم بدائيون» (. .) عندما يكونون على الأرض فهم سعداء وفي سلام . ولكنهم إذا وقفوا كانوا مجرمين (. .) إنهم على استعداد ليتقاسموا رغيف الخبز مع الجائع، ولكنهم على استعداد أيضا لارتكاب جريمة (. . .) في سبيل الوصول إلى شيء يريدونه ولا يستطيعون دفع ثمنه» (دومب ، ١٩٨٥ : ٣٩) .

إنها ، كما يتضح ، عملية (قَوْلَبَة) لشخصية العربي يقوم بها سيملانسكي، بعد أن يبعد الأنظار عن المسبب الرئيسي لسلوك العرب حيال الاستيلاء الصهيوني على أراضيهم. ومع ذلك نجده يدعو لإزالة سوء الفهم الذي ظهر مراراً بين الجانبين، والذي اعتبره ناشئا عن «الافتقار إلى لغة مشتركة» (دومب ، ١٩٨٥ : ٣٩) .

هرتزل . . الوجه والقناع

في الوقت الذي كان فيه مؤسس الصهيونية السياسية تيودور هرتزل (١٨٦٠ ـ ١٩٠٤) يبذل مساعيه على المستوى الدولي للحصول على أرض فلسطين ، فقد أبدى اهتمامه بما كان يجري فيها ، وينتشي لرؤية بعض النجاحات التي يحققها المستوطنون ، فيكتب مثلا في يومياته (٢٠/٤/١٨٩٧) ما يلي: «لا يرى المرء في فلسطين يهوداً عمالا زراعيين وعمالا يوميين من كل الحرف، فحسب، بل أيضا يهود المرتفعات محبي القتال. . إننا ذوو شعبية بين العرب والأتراك. كثيراً ما يذهب المتنازعون العرب إلى قاض يهودي ، بدلا من القاضي التركي، ليحل مشاكلهم» . (صايغ ، ١٩٦٨ : ٧٤) بهذا يرسم هرتزل وصفا يشير عبره إلى النزعة التي تتملك المستوطنين الأوائل لاستخدام العنف ضد العرب. ويدعي بالمقابل أن هؤلاء يبدون ارتياحا ضمنيا إزاء بعض الشخصيات اليهودية إلى حد يجعلهم

يختارون قاضيا يهوديا، ليس غير، يحكّمونه في تسوية النزاعات التي تنشأ فيما بينهم . . ونراه أثناء زيارته لفلسطين (تشرين الأول ـ اكتوبر ١٨٩٨) يحدد دوراً للعرب يمكن أن يقدِّموا فيه خدمات للاستيطان الصهيوني، بعد أن علم بوجود أمراض تفتك بيهود المستوطنات. فيقرر أن يعهد إلى العرب بالأعمال التي تعرض أصحابها للخطر، ويذكر في يومياته حول ذلك أنه «يمكن استخدام العرب الذين لهم مناعة (. .) ضد هذه الحمى» (صايغ، ١٩٦٨ : ٧٨) .

كما نلمس في مختلف كتابات هرتزل، محاولة واضحة لتسويق فكرة «المنافع الاقتصادية» التي ستعود على عرب فلسطين جراء الاستعمار الصهيوني، لكنه مع ذلك يتجاهل عمداً المشكلة الناجمة عن موقف الصهيونيين من أبناء البلاد. ويقدر أهرون كوهين بأن «هرتزل كان يعرف بوجود هذه المشكلة، حتى لو لم يكن قد قرأ مقال آحاد هاعام [سنة ١٨٩١]، ويدلل على ذلك بأن أحد يهود القدس، واسمه يهوذا، وكان طالبا في فرانكفورت، قد حضر المؤتمر الصهيوني الأول وقال، كما تثبت ذلك الوقائع العبرية للمؤتمر: هدفي الرئيسي لحضور المؤتمر أن أواصل حديثي مع هرتزل عن عرب فلسطين. . حثثته كي يقيم علاقات ودية مع الأعيان العرب وأن ينشيء علاقات من التفاهم المتبادل. ولكن مستشاري هرتزل المقربين سخروا من آرائي. . لقد أهملنا مهمة إبلاغ جيراننا أهدافنا، تاركين المجال مفتوحا لبذور الكراهية التي يبذرها صانعو المشاكل» (قاسمية، ١٩٧٣ : ٣٦) .

والمفارقة، شكلا، ان ذلك كان يترجم عمليا على الأرض، بينما يبعث هرتزل برسالة إلى يوسف الخالدي (في ١٩/٣/١٨٩٩) رداً على رسالة الأخير إلى الحاخام كاهن يطمئنه فيها على مصير العرب في فلسطين، فيجزم هرتزل بأنه لا أحد يفكر في طرد هؤلاء بعيداً عن فلسطين «وجودهم وثرواتهم سنضاعفها بوجودنا وثرواتنا . . سيكسبون إخوة أذكياء»[٦] .

هكذا يبدو كيف أن هرتزل كان يعمل وفق موقفين ؛ أولهما متخذ ويتجلى في الاهتمام باستكمال المشروع الاستيطاني وإسقاط مصلحة العرب الفلسطينيين من حساباته، وثانيهما معلن يقوم على تخدير الذين يبدون قلقهم من تبعات الاستيطان الصهيوني في البلاد .

ابشتاين . . التناقض

على شاكلة توجه هرتزل، كان د. يتسحاق ابشتاين ـ أحد المدرسين في المستوطنات الأولى ـ ينظر إلى إجلاء العرب عن أراضيهم لإقامة الاستيطان الصهيوني عليها، على أنه يتم «بموجب العدل والقانون»، لكنه يبدي ارتباكا بشأن مصر «المقذوفين من أرضهم» وردّهم المتوقع مستقبلا .

ففي أيلول (سبتمبر) ١٩٠٧ نشر أبشتاين ـ في مجلة «هشيلواح» ـ نص محاضرة ألقاها أمام مجموعة من مندوبي المؤتمر الصهيوني السابع (١٩٠٥) أكد فيها على أنه «من وجهة النظر العادلة المقبولة، والاستقامة الرسمية، صديقون خلصاء نحن» !! ثم يعيد إلى الأذهان صورة «المناحة التي قامت بها نساء عربيات يوم غادرت عائلاتهن قرية الجاعونة (اليوم روش بينا) إلى حوران . . وللحظات وقفن

وقبلن الحجارة والتراب» ثم يتساءل : «هل يمكن أن يصمت المطرودون ويتقبلوا ببرود ما حصل لهم ؟! ألا يستيقظون في النهاية ليردوا بقبضاتهم ما سلبوه إياهم بالذهب ؟! (الغازي، ١٩٧٢ : ٢٦). ويتحدث ابشتاين كذلك عن المواجهة التي حدثت عند شراء أراضي «المطلة» . فيبيّن كيف تجمع ٦٠ فلاحا يهوديا في البلدة واستوطنوا بيوت أبنائها، بعد أن تم اعتقال هؤلاء من قبل الجنود الأتراك بحجة تهربهم من الجندية (الغازي ، ١٩٧٢ : ٢٦) .

وعما جرى في منطقة طبرية، يشير ابشتاين إلى احتجاج الفلاحين على قيام بائعي الأرض بالتصرف بأرض ليست لهم، وإلى المعركة التي أسفرت عن طرد هؤلاء الفلاحين من أرضهم بالتحالف بين الصهيونيين والجنود الأتراك . ويخلص أبشتاين إلى التقرير بوجود رأي خاطىء منتشر بين الصهيونيين مفاده أن في (أرض اسرائيل) أرضا غير مفلوحة، مؤكدا على ضرورة الاعتراف بأن الصهيونيين قذفوا أناسا مساكين من بيوتهم وقطعوا أرزاقهم (الغازي ، ١٩٧٢ : ٢٧) .

إننا ، كما نلاحظ، أمام تناقض صارخ في مكونات نظرة ابشتاين إلى الواقع. فالصورة التي يطبعها في الأذهان تستدر الشفقة وتوحي بأن الرجل يعارض طرد الفلاحين العرب من أرضهم، بينما نجده في الحين ذاته «يشرعن» إقامة الاستيطان، وينشط أيضا على ساحة تمكين المستوطنين من مواصلة مهماتهم كمدرس، ويصرف جهوداً أخرى في ميدان العمل الزراعي وتشجيعه ، وكأن الزراعة الصهيونية تجري على سطح المريخ ، لا على أرض سلبت من أصحابها العرب بطريقة أو بغيرها .

هل نستطيع تفسير ذلك التناقض، بعيداً عن الاعتقاد بأن أبشتاين يلجأ إلى النفاق وهو يعلم أن انتقاد طريقة الأداء الصهيوني لن يغيّر ما جرى على الأرض !؟!

شواهد أخرى

وطالما أن الانتقاد يتنحّى جانبا أمام اندفاع العمليات التنفيذية لتكون هي القوة المقرّرة ، فمن الطبيعي إذن ألاّ يجد بعض الصهيونيين من المستوطنين الأوائل، ومن الباحثين الآن، حرجاً في تسليط الضوء على طبيعة المرحلة المدروسة، لإظهار قيمة ما بذله المستوطنون في سبيل تغليب المشروع الاستيطاني على مختلف العقبات التي اعترضت سبيله .

يؤكد الياهو غولومب أنه بعد المنازعات المتكررة بين المستوطنين وبين المواطنين العرب، أدرك مؤسسو نظام الحراسة والدفاع الذاتي «أن طريقهم ليس مفروشا بالورود» وأن عليهم أن يفعلوا كما فعل أسلافهم في أمريكا واستراليا. . إنهم يريدون أن يعطوا جيرانهم العرب انطباعا في بلد قانونه السائد هو قانون الصحراء. . لكي يثبتوا ذاتهم ويرهبوا العرب ويكسبوا احترامهم (. . .) ولكي يزيحوا عن نفوسهم أية فكرة عن إمكانية طردهم من البلاد» (قاسمية ، ١٩٧٣ : ٣١) .

ويعزو آرثر روبين ـ أحد المهتمين الصهيونيين بمرحلة استيطان التأسيس ـ عنف المستوطنين

الأوائل تجاه العرب إلى أن «اليهود يرغبون في الحفاظ على مستوى أوروبي من الحضارة عليها أن تتنافس مع غالبية غير معتادة على هذا المستوى» (قاسمية : ١٩٧٣ : ٣٠) . وهذا يعني أن الخلاف الذي نشأ بين الجانبين يُعد «حالة تطبيقية» لتجارب الصدام بين «حَمَلَة الرسالة الحضارية» وبين سكان البلاد الأصليين المتخلفين» .

إجمالاً ، إن المفكرين الصهيونيين الذين انبروا لمعالجة أحداث تلك الفترة كان همهم ـ ربما غير المرئي ـ توزيع مسؤولية الصراع بالتساوي بين طرفين ، يسعى كل منهما إلى تحقيق تطلعاته القومية ، وبذلك يقفزون فوق حقيقة أن الصهيونية ليست سوى «قوة ثانوية جلبت من الخارج ولم تفعل شيئا إلا إعاقة تقدّم القوة الوطنية» إلى مصاف الدولة الوطنية التي تتمتع بالاستقلال الكامل (جيفريز ، ١٩٧٠ : ٦١) .

دروس ونتائج

يقدِّم تقاطع الخطوط السابقة، جميعها، استخلاصات متعدّدة ، بينها :

أولا : إن الاستعمار الصهيوني لم يتطور على نمط «الاستعمار الكلاسيكي» باستغلال الأرض وقوة عمل المواطنين في آن معا ، بسبب السمة الإجلائية / الإحلالية للمشروع الاستيطاني الذي بنته الصهيونية في فلسطين .

ثانيا : إن الموقف الفلسطيني حيال قدوم المهاجرين وحصولهم على الأراضي أثناء فترة الهجرة الصهيونية الأولى ، كان الناظم الأول لكافة أعمال المقاومة والاحتجاج . ولقد ظلت مكونات هذا الموقف محور النضال الفلسطيني حتى نكبة ١٩٤٨ مما يعبر عن استمرارية «وحدة النقيضين» في علاقة الصراع التي لن تحل إلا بانتهاء أحد الطرفين .

ثالثا : مع أن المطالب الشعبية الفلسطينية كانت على الدوام في ظل عجز فلسطيني عام عن التغيير الحاسم، فإن المواجهة بين عرب فلسطين والصهيونيين رسخت حقيقة ارتباط الفلسطينيين بأرضهم منذ ظهور الخطر الصهيوني، بصرف النظر عن اختلال موازين القوى لصالح المشروع المعادي . . .

رابعا : يبين البحث في الاستجابات العثمانية، أن المواجهة الفلسطينية للصهيونيين، أجدت في زيادة التنبه الحكومي وحتى في تعديل مواقف الأستانة من الهجرة اليهودية وتسرب الأراضي. فإثر هجوم الفلاحين على مستوطنة «بتاح تكفا» (١٨٨٦) صدرت تشريعات تتضمن وضع قيود على الهجرة وتم إصدار «جواز السفر الأحمر» الشهير في تلك الفترة . وبعد عريضة احتجاج وجهاء القدس (١٨٩١) بعام واحد، صدر مرسوم يمنع بيع أراضي الدولة (الميري) إلى اليهود. كذلك تم التجاوب ـ قسراً ـ مع مطالب الفلسطينيين بتغيير رشاد باشا متصرف سنجق القدس المالي للصهيونية . وأخيراً ربما يكون الموقف الفلسطيني، قد أثر على السلطان عبد الحميد في رفضه بيع فلسطين وعدم الرضوخ لإغراءات هرتزل في هذا الشأن .

خامسا : يبدو بالتدقيق أن الإخفاقات الاستراتيجية التي تعرضت لها مسيرة العمل الفلسطيني، منذ بدايات الاستيطان كانت محصلة لعدة أسباب منها :

أ ـ غياب التنظيم الطليعي الذي يضطلع بمهمة قيادة وتوجيه النضالات الوطنية، وسيطرة قوى حليفة ، موضوعيا ، للعدو الخارجي ، على الوضع العام في البلاد .

ب ـ عدم قدرة الفلاحين العرب على تطوير الموقف من الاستيطان من مستوى رد الفعل إلى مستوى الإمساك بزمام المبادرة ، في مواجهة المستوطنين، وفي تسخير هذه المواجهة لحمل اليهود الذين يفكرون بالهجرة إلى فلسطين على الإحجام عن ذلك .

حـ ـ انكفاء الفلاحين والوجهاء والفعاليات الاقتصادية، داخل الأطر السلبية للمواجهة، والبحث عن حل خارج سياق الفعل الطبيعي المفترض لتغيير الواقع، فكانت مظاهر هذا الفعل محدودة التأثير وهبّات آنية سرعان ما تخمد جذوتها .

د ـ صمود المستوطنين الأوائل أمام قوى الإعاقة ، باللجوء إلى تكتيكات تخدم أهدافهم البعيدة ، قامت على تذليل الصعوبات في الموضوع الزراعي وفي العلاقات مع العرب .

هـ ـ ولعل أهم عوامل الإحباط والفشل، يتلخص في استخدام السلطات العثمانية السياسية الإكراهية ضد المواطنين العرب، في وقت لم تصل فيه المواجهة العربية الشاملة مع الاحتلال التركي إلى نقطة الحسم، وسنّ السلطات أنظمة وقوانين أمنية تفضي بشكل غير مباشر إلى الاعتراف بالواقع الاستيطاني عملياً .

على ما تقدم كانت المواجهة الفلسطينية ضد الاستيطان الصهيوني جزءاً من عمل متكامل، تجتمع أمامه تأثيرات الاحتلال العثماني والاقطاع والتخلف والجهود الاستيطانية الصهيونية، دفعة واحدة . . وبصرف النظر عن النتائج التي تكرست في المراحل التالية، فمن الإجحاف الانسياق وراء الرأي القائل إن عرب فلسطين كانوا أثناء بدايات الاستيطان في سُبات .

الهوامش

(١) د. خيرية قاسمية ـ ص ٣٢ . وتذكر المؤلفة المصدر في هامش الصفحة : «الجوائب عدد ٨/٣٥٦ (صاحبها بطرس البستاني)» . والصحيح كما تؤكد كافة الكتب التي تناول تلك الفترة أن «الجوائب» جريدة صاحبها أحمد فارس الشدياق، أصدرها في الآستانة عام ١٨٦٠ وتوقفت عن الصدور بوفاته عام ١٨٨٣ .

(٢) نيفيل مندل ، «مواقف العرب والأتراك من الهجرة اليهودية إلى فلسطين بين عامي ١٨٨٢ ـ ١٩١٤» .

Neville Mandel "Turk, Arabs on Jewish Immigration into Palestine 1882-1914. (St. Antonys Papers, N. 17, Middle Eastern Affairs N.4, Oxford University Press 1965) A Hourani pp. 77-108.

وفي مجلة «الدراسات الفلسطينية» ترجمة لهذه المقالة (مكي حبيب المؤمن) . (بغداد : مركز الدراسات الفلسطينية في جامعة بغداد) العدد ٢٨ ، آيار (مايو) حزيران (يونيو) ١٩٧٨ ـ ص ١٦ وما بعدها . . والاقتباس من ص ٢٧ .

(٣) الشيخ الريماوي من أبناء قرية بيت ريما (قضاء رام الله) ، درس في الأزهر ، وبعد تخرجه عمل في تدريس الفقه واللغة العربية في مدرسة المعارف بالقدس .

(٤) قدم الإفادة أحد أقارب الشيخ الرياوي ، مهتم بالموضوع ، هو الزميل الكاتب محمد الرياوي ، نظرا لعدم توفر أية معلومات عن جريدة «الغزال» في المراجع المكتوبة .

(٥) من نص المقالة المنشور :
Parlement, M. "Chapters of Arabe Jewish Diplomacy" 1918-1922. Jewish Social Studies, April 1944, p. 123.

أوردتها د. خيرية قاسمية ـ ص ٣٣ .

(٦) النص الكامل للرسالة في :
. Khalidi, W. (Editor), from Haven to Conquest (Beirut: I.P.S) 1971, P.P. 91-93.

المراجع العربية

أبوعرفه ، عبد الرحمن — **الاستيطان . . التطبيق العملي للصهيونية** ، بيروت : المؤسسة العربية للدراسات والنشر بالاشتراك مع دار الجليل بعمان ، ١٩٨١ .

بدر، حمدان — **تاريخ منظمة الهاغاناه في فلسطين**، بيروت ، منشورات فلسطين المحتلة ، بلا تاريخ .

بولاك ، أ. ن. — **إسرائيل . . . أمة وتاريخها** ، تل أبيب : دار النشر العربي ، ١٩٧١ .

التميمي ، عبد المالك خلف — **الاستيطان الأجنبي في الوطن العربي**، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، رقم ٧١ ، تشرين الثاني : ١٩٨٣ .

جريس ، صبري — **تاريخ الصهيونية ـ الجزء الأول ، ١٨٦٢ ـ ١٩١٧** ، بيروت : مركز الأبحاث م.ت.ف ، ١٩٧٧ .

جيفريز ، ج . — **فلسطين إليكم الحقيقة** ، ترجمة : أحمد الحاج ، الجزء الأول ، القاهرة : الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ، ١٩٧٠ .

حلاق ، حسان — **موقف الدولة العثمانية من الحركة الصهيونية ١٨٩٧ ـ ١٩٠٩** ، بيروت ، الدار الجامعية للطباعة والنشر ، ١٩٨٠ .

خوري ، يوسف — **الصحافة العربية في فلسطين ١٨٧٦ ـ ١٩٤٨** ، بيروت : مؤسسة الدراسات الفلسطينية بالاشتراك مع الاتحاد العام للكتاب والصحفيين الفلسطينيين ، ١٩٧٦ .

دومب ، ريزا — **صورة العربي في الأدب اليهودي ١٩١١ ـ ١٩٤٨** ، ترجمة عارف توفيق عطاري، عمان: دار الجليل، ١٩٨٥ .

دومال ، جاك — **التحدي الصهيوني** ، تعريب : نزيه الحكيم ، بيروت : دار العلم للملايين بالاشتراك مع دار الآداب ، ١٩٦٨ .

ديفيز ، جون — **السلام المراوغ** ، ترجمة : محمود فلاحة ، دمشق : نشر وتوزيع مكتبة طلاس، بلا تاريخ

رزوق ، أسعد — **إسرائيل الكبرى ـ دراسة في الفكر التوسعي الصهيوني** ، سلسلة كتب فلسطينية، بيروت : مركز الأبحاث م.ت.ف ، رقم ١٣ ، ١٩٦٨ .

ستيفنز ، ريتشارد — **تهويد فلسطين**، إعداد وتحرير : إبراهيم أبولغد ، بيروت : مركز الأبحاث ، م.ت.ف ، ١٩٧٢ .

سيملانسكي ، موشي — **الاستعمار اليهودي والفلاح** ، تعريب : د. نسيم ملوّل القدسي ، مطبعة ملوّل ، شارع الملك جورج : ١٩٣٠ .

شلحت ، انطوان — «العنصرية في نماذج من الثقافة الاسرائيلية /٢» ، حيفا : **جريدة الاتحاد** ، العدد ٢٣٥/٤١ تاريخ ١٥/٢/١٩٨٥ .

صالح ، حسن عبد القادر — **سكان فلسطين ديمغرافيا وجغرافيا** ، عمان : دار الشروق ، ١٩٨٥ .

صايغ، أنيس — ـ **الفكرة الصهيونية ـ النصوص الأساسية** ، سلسلة كتب فلسطينية ، بيروت : مركز الأبحاث . م . ت . ف . رقم ٢١ ، ١٩٧٠ .
ـ **يوميات هرتزل** ، ترجمة : هلدا شعبان صايغ ، سلسلة كتب فلسطينية ، بيروت : مركز الأبحاث ، م . ت . ف ، رقم ١٠ ، ١٩٦٨ .

عوض، عبد العزيز محمد — **مقدمة في تاريخ فلسطين الحديث ١٨٣١ ـ ١٩١٤** ، بيروت : المؤسسة العربية للدراسات والنشر بالاشتراك مع مكتبة المحتسب ، ١٩٨٣ .

الغازي ، يوسف — «**قاموس تاريخي ـ الصهيونية والنهب**» ، حيفا : **مجلة الجديد** ، السنة ١٩ ، العدد ٦ ، حزيران ، ١٩٧٢ .

غرولنبرغ ، لوكاس — **فلسطين أولا** ، ترجمة : محمود ملاحة ، دمشق : منشورات وزارة الثقافة ، ١٩٨٢ .

قاسمية ، خيرية — **النشاط الصهيوني في الشرق العربي وصداه ١٩٠٨ ـ ١٩١٨** ، سلسلة كتب فلسطينية ، بيروت : مركز الأبحاث ، م . ت . ف ، ١٩٧٣ .

القشطيني، خالد — **تكوين الصهيونية** ، بيروت : المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٨٦ .

كوتلوف — **تكوّن جركة التحرير الوطني في المشرق العربي** ، ترجمة سعيد أحمد، دمشق : منشورات وزارة الثقافة والارشاد القومي ، ١٩٨١ .

الكيالي، عبد الوهاب — **تاريخ فلسطين الحديث**، بيروت : المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ١٩٧٩ .

محمود، أمين عبد الله — **مشاريع الاستيطان اليهودي منذ قيام الثورة الفرنسية حتى نهاية الحرب العالمية الأولى** ، سلسلة عالم المعرفة ، الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، شباط، ١٩٨٤

المسيري ، عبد الوهاب — **الأيدولوجية الصهيونية** ، سلسلة عالم المعرفة ، الكويت : المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، رقم ٦١ ، كانون الثاني ، ١٩٨٣ .

مندل ، نيفيل — «**مواقف العرب والأتراك من الهجرة اليهودية إلى فلسطين بين عامي ١٨٨٢ ـ ١٩١٤** ، **مجلة الدراسات الفلسطينية** ، ترجمة : مكي حبيب المؤمن وأيضا بغداد : مركز الدراسات الفلسطينية العدد ٢٨ ، آيار ، ١٩٧٨ .

مؤسسة الأرض للدراسات الفلسطينية — **استراتيجية الاستيطان الصهيوني في فلسطين المحتلة** ، دمشق : ١٩٧٨ .

مؤسسة الدراسات الفلسطينية بالاشتراك مع الشعبة الخامسة في الأركان العامة للجيش اللبناني — **القضية الفلسطينية والخطر الصهيوني** ، بيروت : ١٩٧٣ .

موسى ، صابر — «**نظام ملكية الأراضي في فلسطين في أواخر العهد العثماني**» **شئون فلسطينية** ، بيروت : مركز الأبحاث م . ت . ف ، العدد ٩٥ ، تشرين الأول ، ١٩٧٩ .

الهواري ، عرفان سعيد أبو أحمد — **أعلام من أرض السلام**، حيفا: شركة الأبحاث العلمية العملية التابعة لجامعة صنعاء، ١٩٧٩ .

وهب الله ، عبد الوهاب — **الاستيطان اليهودي في الأدب الصهيوني** ، بيروت : دار الكلمة للنشر، ١٩٨٣ .

وينز ، دافيد — **تمهيد فلسطين** ، إعداد وتحرير : إبراهيم أبو لغد ، بيروت : مركز الأبحاث م . ت . ف ، ١٩٧٢ .

ياسين ، عبد القادر — **كفاح الشعب الفلسطيني قبل العام ١٩٤٨** ، بيروت : مركز الأبحاث م . ت . ف ، ١٩٧٥ .

المراجع الأجنبية

Department of Statistics — **The Jewish Agency for Palestine, Statistical Abstract of Palestine,** 1944 - 1945.

Khalidi, W. **From Haven to Conquest,** Beirut: I.P.S, 1971.

Mandel, Neville "Turk Arabs on Jewish Immigration into Palestine 1882 - 1914" (St. Antonys Papers, N.17. Middle Eastern Affairs **Middle Eastern Affairs** N. 4, Oxford University Press. 1965) A. Hourani, pp. 77 - 108.

Perlement, M. "Chapters of Arabe Jewish Diplomacy 1918-1922". **Jewish Social Studies.** April, 1944.

Sayegh, F.A. **Le Colonialisme Sioniste En Palestine,** Mon. Pal NI (Beyrouth: Centre de Recherches O.L.P.) 1966. p. 41.